سورة آل عمران

في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (نزل عليك الكتاب بالحق)، ثم قال تعالى: (وأنزل التوراة والإنجيل)؟

قلنا: لأن القرآن أنزل منجمًا، والتوراة والإنجيل نزلا جملةً واحدة، كذا أجاب الزمخشري وغيره، ويرد عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[١]؛ فإن الزمخشري قال: أراد به جنس الكتب السماوية لا الثلاثة المذكورة خصوصًا، أو أراد به الزبور، أو أراد به القرآن، وكرر ذكره تعظيمًا، ويردُّ عليه أيضًا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[٤]، والذي وقع لي فيه –والله أعلم– أن التضعيف في «نزّل» والهمزة في «أنزل» كلاهما للتعدية؛ لأن نزل فعل لازم في نفسه، وإذا كانا للتعدية لا يكونان لمعنى آخر، وهو التكثير أو نحوه؛ لأنه لا نظير له، وإنما جمع بينهما والمعنى واحد وهو التعدية جريا على عادة العرب في افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه على وجوه شتى، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[٥]، وقال في موضع آخر: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[٦].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) آل عمران: ٤.
(٢) آل عمران: ٧.
(٣) البقرة: ٢.
(٤) الفرقان: ٣٢.
(٥) الأنعام: ٣٧.
(٦) يونس: ٢٠.

فإن قيل: كيف قال: (منه آيات محكمات) و«من» للتبعيض، وقال في موضع آخر: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[1]، وهذا يقتضي كون جميع آياته محكمة؟

قلنا المراد بقوله: (منه آيات محكمات) أي: ناسخات (وأخر متشابهات) أي: منسوخات، وقيل: المحكمات العقليات، والمتشابهات الشرعيات، وقيل: المحكمات ما ظهر معناها، والمتشابهات ما كان في معناها غموض ودقة، والمراد بقوله: (كتاب أحكمت آياته) أن جميع القرآن صحيح ثابت مصون عن الخلل والزلل، فلا تنافيها.

فإن قيل: كيف قال هنا: (وأخر متشابهات) جعل بعضه متشابهًا، وقال في موضع آخر: (كتاب متشابهًا) وصفه كله بكونه متشابهًا.

قلنا: المراد بقوله: (وأخر متشابهات) ما سبق ذكره، والمراد بقوله: (كتابا متشابها) أنه يشبه بعضه بعضًا في الصحة وعدم التناقض وتأييد بعضه بعضًا، فلا تنافي؟

فإن قيل: ما فائدة إنزال المتشابه بالمعنى الأخير، والمقصود من إنزال القرآن إنما هو البيان والهدى، والغموض والدقة في المعاني ينافي هذا المقصود أو يبعده؟

قلنا: لما كان كلام العرب ينقسم إلى ما يفهم معناه سريعًا ولا يحتمل غير ظاهره، وإلى ما هو مجاز وكناية وإشارة وتلويح، والمعاني فيه متعارضة متزاحمة، وهذا القسم هو المستحسن عندهم والمبتدع في كلامهم، نزل القرآن بالنوعين تحقيقًا لمعنى الإعجاز، كأنه قال: عارضوه بأي النوعين شئتم فإنه جامع لهما، وأنزل الله ﷻ كتابًا محكمًا ومتشابهًا ليختبر من يؤمن به كله، ويرد علم ما تشابه منه إلى الله فيثيبه، ومن يرتاب فيه ويشك، وهو المنافق فيعاقبه، كما ابتلى عباده بنهر طالوت وغيره، أو أراد أن يشتغل العلماء برد المتشابه إلى المحكم بالنظر والاستدلال والبحث والاجتهاد فيثابون على هذه العبادة، ولو كان كله ظاهرًا جليًا لاستوى فيه العلماء والجهَّال، ولماتت الخواطر بعدم البحث والاستنباط، فإن نار الفكر إنما تقدح بزناد المشكلات، ولهذا قال بعض الحكماء: عيب الغنى أنه يورث البلادة ويميت الخواطر وفضيلة الفقر أنه يبعث على إعمال الفكر واستنباط الحيل في الكسب.

---

(١) هود: ١.

وفي قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣].

فإن قيل: قوله تعالى: (يرونهم مثليهم رأي العين) أي: ترى الفئة الكافرة الفئة المسلمة مثلي عدد نفسها، أو بالعكس على اختلاف القولين، وكيفما كان فهو منافٍ لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾؛ لأنه يدلُّ على أن الفئتين تساوتا في استقلال كل واحدة منهما للأخرى.

قلنا: التقليل والتكثير في حالين مختلفين، قلل الله المشركين في نظر المؤمنين أولاً، والمؤمنين في نظر المشركين حتى اجترأت كل فئة على قتال صاحبتها، فلما التقتا كثر الله المؤمنين في نظر المشركين، حتى جبنوا وفشلوا فغلبوا، وكثر الله المشركين في نظر المؤمنين أو أراهم إياهم على ما هم عليه، وكانوا في الحقيقة أكثر من المؤمنين ليعلموا صدق ما وعدهم الله تعالى بقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنْكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[1] الآية؛ فإن المؤمنين غلبوهم في هذه الغزاة وهي غزاة بدر، مع أنهم كانوا أضعاف عدد المؤمنين، وقيل: أرى الله المسلمين المشركين مثل عدد المسلمين، وكانوا ثلاثة أمثالهم لكنه قللهم في أعين المسلمين، وأراهم إياهم بقدر ما أعلمهم أنهم يغلبونهم لتقوى قلوبهم بما سبق من الوعد أن المائة من المؤمنين يغلبون المائتين منهم.

وفي قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

فإن قيل: ما فائدة تكرار قوله: (لا إله إلا هو) في قوله: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو)؟

قلنا: الأول قول الله ﷻ، والثاني حكاية قول الملائكة وأولى العلم.

وقال جعفر الصادق ﷺ[2]: الأول وصف، الثاني تعليم، أي: قولوا واشهدا كما شهدوا.

---

(١) الأنفال: ٦٥.

(٢) جعفر الصادق هو: جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي أبو عبد الله الملقب بالصادق سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه جماعة منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك، ولقب بالصادق؛ لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. الأعلام (١/ ١٢٦).

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وهم معرضون) في قوله: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون)، والتولي والإعراض واحد؟

قلنا: معناه: يتولون عن الداعي ويعرضون عما دعاهم إليه، وهو كتاب الله، أو يتولون بأبدانهم ويعرضون عن الحق بقلوبهم، كالذين تولوا علماؤهم، والذين أعرضوا أتباعهم.

وفي قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فإن قيل: كيف قال: (بيدك الخير) خص الخير بالذكر، وبيده تعالى الخير والشر والنفع والضر؟

قلنا: لأن الكلام إنما ورد ردًّا على المشركين فيما أنكروه مما وعد الله تعالى به نبيه ﷺ، على لسان جبريل عليه السلام من فتح بلاد الروم وفارس، ووعد النبي ﷺ الصحابة بذلك، فلما كان الكلام في الخير خصه بالذكر باعتبار الحال، أو أراد الخير والشر فاكتفى بأحدهما لدلالته على الآخر.

كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[1]، وإنما خص الخير بالذكر؛ لأنه المرغوب فيه المطلوب للعباد منه.

وفي قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [آل عمران: ٢٧].

فإن قيل: كيف قال: (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) وإيلاج الشيء في الشيء يقتضي اجتماع حقيقتهما بعد الإيلاج، كإيلاج الخيط في الإبرة والإصبع في الخاتم ونحوهما، وحقيقة الليل والنهار لا يجتمعان؟

قلنا: الإيلاج قد يكون كما ذكرتم، وقد يكون مع تبدل صفة أحدهما بغاية صفة

(١) النحل: ٨١.

الآخر عليه مع بقاء ذاته فيه، كإيلاج كسيرة من خبز في لبن كثير أو بالعكس، فإن الحقيقتين مجتمعان وزنًا وصفةً، أحدهما غالبة على الأخرى، كذلك الليل والنهار إذا كان الليل أربع عشرة ساعة بالنسبة إلى زمن الاعتدال، ففيه من النهار ساعتان قطعًا، وكذا على العكس، أو معناه يولج زمن الليل في زمن النهار وبالعكس، أو يولج الليل في النهار وبالعكس باعتبار أن ليل قوم هو نهار آخرين، وبالعكس أو معناه أنه خلق ليلاً صرفًا خالصًا، وخلق ما هو ممتزج منهما وهو ما قبيل طلوع الشمس وقبيل غروبها والجواب الثالث والرابع يعمان جميع السنة.

وفي قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى**﴾ [آل عمران: ٣٦].

فإن قيل: ما فائدة قوله: (وليس الذكر كالأنثى) وهو معلوم من غير ذكر؟

قلنا: هي ظنت أن ما في بطنها ذكرًا، ولهذا نذرت أن نجعله خادمًا لبيت المقدس، وكان من شريعتهم صحة هذا النذر في الذكور خاصة؛ فلما وضعت أنثى استحيت حيث خاب ظنها ولم يتقبل نذرها، فقالت ذلك معتذرة، تعني ليست الأنثى بصالحة لما يصلح له الذكر في خدمة المسجد؛ لا أنها أرادت أن الأنثى ليست كالذكر صورة أو قوة أو نحو ذلك، فلما قالت ذلك منكسرة خجلة من الله تعالى عليها بتخصيص مريم بقبولها في النذر دون غيرها من الإناث فقال تعالى: (فتقبلها ربها بقبول حسن).

فإن قيل: المستعمل في مثله إدخال حرف النفي على القاصر، وحرف التشبيه على الكامل كقولهم: ليس كالذهب الفضة، وليس العبد كالحر، فوزانه: وليس الأنثى كالذكر.

قلنا: لما كان جعل الأصل فرعًا والفرع أصلاً في التشبيه في حالة الإثبات يقتضي المبالغة في المشابهة كقولهم: القمر كوجه زيد، والبحر ككفه كان جعل الأصل فرعًا والفرع أصلاً في حالة النفي يقتضي نفي المبالغة في المشابهة لا نفي المشابهة، وذلك هو المقصود هنا؛ لأن المشابهة واقعة بين الذكر والأنثى في أعم الأوصاف وأغلبها، ولهذا يقاد أحدهما بالآخر، وإنما أرادت أم مريم المشابهة بينهما في صحة النذر به خادمًا لبيت المقدس لا غير فلذلك عكس. الثاني: أن ذلك قوله تعالى، والمعنى ليس الذكر الذي طلبت أن يكون خادمًا للكنيسة كالأنثى التي

وهبت لما علم الله من جعلها وابنها آية للعالمين، وهو تفسير للتعظيم والتفخيم المحمل في قوله تعالى: (والله أعلم بما وضعت)، وهي لا تعرف مقدار شرفه، واللام في الذكر والأنثى للعهد، هذا كله قول الزمخشري وتمامه في «الكشاف».

وقال الفقيه أبو الليث -رحمه الله تعالى: قال بعضهم: هذا قول الله تعالى لمحمد ﷺ، أي: وليس الذكر كالأنثى يا محمد. وقال بعضهم: هو من كلام أم مريم[1].

وفي قوله تعالى: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٩].

فإن قيل: كيف نادت الملائكة زكريا وهو قائم يصلي في المحراب وأجابها وهو في الصلاة كما قال الله تعالى: (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي) الآية؟

قلنا: المراد بقوله يصلي: أي يدعو كقوله تعالى: (ولا تجهر بصلاتك ولا خافت بها) أي: بدعائك.

فإن قيل: ما فائدة تخصيص يحيى عليه السلام بقوله: (إن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله) وكل واحد من المؤمنين مصدق بجميع كلمات الله تعالى؟

قلنا: معناه مصدقًا بعيسى الذي كان وجوده بكلمة من الله تعالى وهي كلمة «كن» من غير واسطة أب، وكان تصديق يحيى بعيسى أسبق من تصديق كل واحد في الوجود أو في المرتبة.

وفي قوله تعالى: ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ [آل عمران: ٣٨].

فإن قيل: زكريا سأل الولد بقوله: (هب لي من لدنك ذرية طيبة)، والله تعالى بشره بيحيى عليه السلام على لسان الملائكة؛ فكيف أنكر بعد هذا كله قدرة الله تعالى إعطائه الولد حتى قال: (رب أني يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر)؟

(١) ويرى الباحث أن الكلام لأم مريم – عليها السلام – وليس لمحمد × والمقام يؤكد ذلك.

قلنا: إنما قاله على سبيل الاستفهام والتعجب من عظيم قدره تعالى، لا على طريق الإنكار والاستبعاد، أو اشتبه عليه هل يعطي الولد، وهو شيخ وامرأته عاقر، وتزول عنهما هاتان الصفتان بكشف الحال تقديره: أني يكون لي غلام، وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، ولقائل أن يقول: آخر الآية لا يناسب هذا الجواب.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٤٢].

فإن قيل: ما فائدة تكرار ذكر الاصطفاء في قوله تعالى: (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك)؟

قلنا: الاصطفاء الأول: للعبادة التي هي خدمة البيت المقدس وتخصيصها بقبولها في النذر مع كونها أنثى، والاصطفاء الثاني: لولادة عيسى عليه السلام، أو أعيد ذكر الاصطفاء ليفيد بقوله: (على نساء العالمين)، فيندفع وهم أنها مصطفاة على الرجال.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٤٤].

فإن قيل: كيف نفى حضور النبي -عليه الصلاة والسلام- في زمن مريم -عليها السلام- بقوله: (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) الآية، وذلك معلوم عندهم لا شكَّ فيه، وترك نفي استماعه ذلك الخبر من حفاظه، وهو الذي كانوا يتوهمونه؟

قلنا: كان معلوما عندهم أيضًا علما يقينًا أنه ليس من أهم القراءة والرواية، وكانوا منكرين للوحي فلم يبق إلا المشاهدة والحضور، وهي في غاية الاستحالة، فنفيت عن طريق التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم أنه لا قراءة له ولا رواية ونظيره قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ**﴾[(١)]، ﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ**﴾[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ**

(١) القصص: ٤٤.
(٢) القصص: ٤٦.

﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥].

فإن قيل: كيف قال: (اسمه المسيح عيسى ابن مريم)، والخطاب مع مريم، وهي تعلم أن الولد الذي بشرت به يكون ابنها؟

قلنا: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب، فلا ينسب إلا إلى أمه.

فإن قيل: أي معجزة لعيسى -عليه الصلاة والسلام- في تكليم الناس كهلاً وأي خصوصية له في هذا حتى قال: (ويكلم الناس في المهد وكهلاً)؟

قلنا: معناه: ويكلم الناس في هاتين الحالتين بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولية، وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل، وينبأ فيها الأنبياء فكأنه؛ قال: ويكلم الناس في المهد كما يكلمهم كهلاً.

وقال الزجاج: هذا خرج مخرج البشارة لمريم أنه -عليه الصلاة والسلام- سيبقى إلى زمن الكهولة؛ فهو بشارة لها بطول عمره.

وقيل: المقصود منه أن الزمان يؤثر فيه كما يؤثر في غيره، وينقله من حال إلى حال، ولو كان إلهًا لم يجز عليه التغيير.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

فإن قيل: كيف قال: (إني متوفيك ورافعك إلى)، والله تعالى رفعه ولم يتوفه؟

قلنا: لما هدده اليهود بالقتل بشره بأنه إنما يقبض روحه بالوفاة لا بالقتل، والواو لا تفيد الترتيب؛ فلا يلزم من الآية موته قبل رفعه.

الثاني: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره: إني رافعك ومتوفيك.

والثالث: أن معناه: قابضك من الأرض تامًا وافيًا في أعضائك وجسدك، لم ينالوا منك شيئًا، من قولهم: توفيت حقي على فلان، إذا استوفيته تامًا وافيًا.

الرابع: أن معناه إني متوفي نفسك بالنوم من قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ

﴿مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[1]، ورافعك إليَّ وأنت نائم حتى لا تخاف، بل تستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فإن قيل: كيف قال: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم)، وآدم خلق من التراب، وعيسى خلق من الهواء، وآدم خلق من غير أب وأم، وعيسى خلق من أم؟

قلنا: المراد به التشبيه في وجوده بغير واسطة أب، والتشبيه لا يقتضي المماثلة من جميع الوجوه، بل من بعضها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

فإن قيل: كيف خصَّ أهل الكتاب بأن منهم أمينًا وخائنًا بقوله: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك) الآية، والمسلمون وغيرهم من أهل الملل كذلك، منهم الأمين والخائن؟

قلنا: إنما خصهم باعتبار واقعة الحال، فإن سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام أودع ألفًا ومائتي أوقية من الذهب فأدى الأمانة فيها، وفنحاص بن عازفة أودع دينارًا فخانه، ولأن خيانة أهل الكتاب المسلمين تكون عن استحلال بدليل آخر الآية، بخلاف خيانة المسلم فلذلك خصهم بالذكر.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

فإن قيل: كيف قال: (وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا)، وأكثر الإنس والجن كفرة؟

---

(١) الزمر: ٤٢.

قلنا: المراد بهذا الاستسلام الانقياد لما قضاه الله عليهم وقدره من الحياة والموت والمرض والصحة والشقاء والسعادة، ونحو ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠].

فإن قيل: كيف قال: (إن الذين كفرا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم)، ومعلوم أن المرتد كيفما ازداد كفرًا فإنه مقبول التوبة؟

قلنا: الآية نزلت في قوم ارتدوا، ثم أظهروا التوبة بالقول ليستروا أحوالهم والكفر في ضمائرهم، قاله ابن عباس –رضي الله عنهما، وقيل: نزلت في قوم تابوا من ذنوبهم غير الشرك، وقيل: معناه: لن تقبل توبتهم وقت حضور الموت.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

فإن قيل: كيف قال: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة)، وكم من بيت بني قبل الكعبة من زمن آدم عليه السلام إلى زمن إبراهيم عليه السلام؟

قلنا: معناه إن أول بيت وضع قبلة للناس ومكان عبادة لهم، أو وضع مباركًا للناس، ولأن ابن عباس قال: أول من بناه آدم عليه السلام لما هبط من السماء أوحى الله تعالى إليه: ابن لي بيتًا في الأرض، واصنع حوله نحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، فبناه وجعل يطوف حوله.

وفي قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (كنتم خير أمة)، ولم يقل أنتم خير أمة؟

قلنا: معناه كنتم في مطابق علم الله أو كنتم يوم أخذ الميثاق على الذرية، فأراد الإعلام بكون ذلك صفة أصلية فيهم لا عارضة متجددة، أو معناه خلقتم ووجدتم فهي كان

التامة، وخير أمة نصب على الحال، وتمام الكلام في «كان» في قوله تعالى: (إنه كان فاحشة ومقتًا).

فإن قيل: كيف قال: (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم)، ولا يصح أن يقال: هذا خير من ذلك إلا إذا كان في كل واحد منهما خير، مع أن غير الإيمان لا خير فيه حتى يقال: إن الإيمان خير منه؟

قلنا: معناه إيمانهم بمحمد ﷺ مع إيمانهم بموسى وعيسى -عليهما السلام- خير من إيمانهم بموسى وعيسى -عليهما الصلاة والسلام- فقط.

وفي قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [آل عمران:١١٧].

فإن قيل: كيف قال: (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر) الآية، والمقصود تشبيه نفقة الكفار وأموالهم في تحصيل المفاخر وطلب الصيت والسمعة، أو ما ينفقونه في الطاعات مع وجود الكفر، أو ما ينفقونه في عداوة رسول الله ﷺ بالزرع الذي أصابته ريح شديدة البرد فأهلكته فضاع ولم ينتفع به، والتشبيه في الحقيقة بالزرع وفي لفظ الآية بالريح؟

قلنا: فيه إضمار تقديره إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صر، أو مثل ما ينفقونه كمثل مهلك ريح، ونظيره قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ**﴾[1] الآية، وقوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ**﴾[2] الآية، وقال ثعلب: فيه تقديم وتأخير تقديره: كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم أصابته ريح فيها صر فأهلكته.

وفي قوله تعالى: ﴿**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٠].

(١) البقرة: ٢٦١.
(٢) البقرة: ١٧١.

فإن قيل، كيف قال: (إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) فوصف الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟

قلنا: المس مستعار بمعنى الإصابة فكأنَّ المعنى واحد ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ**﴾، وقوله: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾[(١)]، وقوله: ﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فإن قيل: كيف قال: (وسارعوا)، والنبي ﷺ يقول: «**العجلة من عمل الشيطان والتأني من الرحمن**»[(٣)]؟

قلنا: قد استثنى النبي ﷺ خمسة مواضع، فقال: «إلا في التوبة من الذنب، وقضاء الدين الحال، وتزويج البكر البالغ، ودفن الميت، وإكرام الضيف إذا نزل»، والمسارعة المأمور بها في الآية هي المسارعة إلى التوبة، وما في معناها من أسباب المغفرة.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فإن قيل: كيف قال: (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) عطف عليه بكلمة «أو»، وفعل الفاحشة داخل في ظلم النفس، بل هو أبلغ أنواع ظلم النفس؟

قلنا: أريد بالفاحشة نوع من أنواع ظلم النفس، وهو الزنا أو كل كبيرة، فخص بهذا الاسم تنبيهًا على زيادة قبحه، وأريد بظلم النفس ما وراء ذلك من الذنوب.

فإن قيل: كيف قال هنا: (ومن يغفر الذنوب إلا الله)، وقال في موضع آخر: ﴿**وَإِذَا مَا**

(١) النساء: ٧٩.
(٢) المعارج: ٢١.
(٣) سنن الترمذي: ٦٦.

﴿غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[١].

قلنا: معناه ومن يستر الذنوب من جميع الوجوه إلا الله، ومثل هذا الغفران لا يوجد إلا من الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال: (أفإن مات أو قتل)، وهلا اقتصر على قوله: (أفإن مات) وكان القتل يدخل فيه فإنه موت؟

قلنا: القتل وإن كان موتًا لكن إذا أطلق الموت في العرف لا يفهم منه المقتول، فذلك عطف أحدها على الآخر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

فإن قيل: كيف قال: (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة)، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٢].

قلنا: معناه يأتي به مكتوبًا في ديوانه، أو يأتي به حاملاً إثمه، ومعنى فرادى: منفردين عن الأهل والأموال، أو عن الشركاء في الغي، أو عن الآلهة المعبودة من دون الله، وتمام الآية يشهد للكلِّ.

فإن قيل: قد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أن الغال يأتي يوم القيامة حاملاً عين ما غله على عنقه، صامتًا كان أو ناطقًا، هذا معنى الحديث؛ فاندفع الجواب.

قلنا: على هذا يكون المراد بالآية الأخرى فرادى عن مال وأهل يعتزون بهما ويستنصرون، ويشهد بصحته تمام الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

فإن قيل: كيف قال: (هم درجات عند الله) والعبيد ليسوا في نفس الدرجات؟

---

(١) الشورى: ٣٧.

(٢) الأنعام: ٩٤.

قلنا: فيه إضمار تقديره: ذو درجات، أو أهل درجات، فحذف المضاف لعدم الالتباس. وقيل: المراد بالدرجات الطبقات، فلا يكون فيه إضمار، معناه أنهم طبقات عند الله متفاوتون كتفاوت الدرجات.

فإن قيل: كيف جعل لكلا الفريقين درجات وأحد الفريقين لهم دركات لا درجات[1]؟

قلنا: الدرجات تستعمل في الفريقين بدليل قوله تعالى في سورة الأحقاف بعد ذكر الفريقين: ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا**﴾[2]، وتحقيقه أن بعض أهل النار أخف عذابًا، فمكانه فيها أعلى، وبعضهم أشد عذابًا فمكانه فيها أقل، ولو سلم اختصاص الدرجات بأهل الجنة كان قوله: (هم درجات) راجعًا إليهم خاصة تقديره: أفمن اتبع رضوان الله وهم درجات عند الله كمن باء بسخط من الله وهم دركات، إلا أنه حذف البعض لدلالة المذكور عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ [آل عمران: ١٨١].

فإن قيل: (الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) كانوا في زمن النبي ﷺ، قالوا ذلك لما سمعوا قوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾[3]؛ فكيف قال: ﴿**سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ**﴾[4] أي: ونكتب قتلهم الأنبياء، وهم لم يقتلوا نبيًّا؟

قلنا: لما وصف بقتل أسلافهم الأنبياء كأنهم باشروا ذلك، فأضيف إليهم، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيرًا.

وفي قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [آل عمران:١٨٢].

فإن قيل: كيف قال: (وأن الله ليس بظلام للعبيد)، وظلّام صيغة مبالغة من الظلم،

(١) الدرجات منازل أهل الجنة، والدركات منازل أهل النار.
(٢) الأحقاف: ١٩.
(٣) البقرة: ٢٤٥.
(٤) آل عمران: ١٨١.

لا يلزم من نفي الظلاّم نفي الظالم، وعلى العكس يلزم، فهلا قال: ليس بظالم ليكون أبلغ في نفي الظلم عن ذاته المقدسة؟

قلنا: صيغة المبالغة جيء بها لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم، كما قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾[1]، وقال: (عالم الغيب – وعلام الغيوب) لما أفرد المعمول لم يأت بصيغة المبالغة، ونظيره قولهم: زيد ظالم لعبده، وعمرو ظلام لعبيده، فهما في الظلم سيان، وكذلك قوله تعالى: ﴿**مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ**﴾[2]، فشدد لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل، الثاني: أن العذاب من العظيم القدر، الكثير العدل لولا سبق الجناية يكون أفحش وأقبح من الظلم ممن ليس عظيم القدر كثير العدل، فيطلق عليه اسم الظلام باعتبار زيادة قبح الفعل منه لا باعتبار تكرره، فحاصله أن صيغة المبالغة تارة تكون باعتبار زيادة ذات الفعل، وتارة باعتبار صفته فأصل الظلم لو وجد من الله تعالى وتقدس لكان أعظم من ألف ظلم يوجد من عبيده، باعتبار زيادة وصف القبح؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿**وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[3] على ما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿**فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾ [آل عمران: ١٨٤].

فإن قيل: في قوله تعالى: (فإن كذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) من حق الجزاء أن يتعقب الشرط، وهذا سابق له؟

قلنا: ومعناه: وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل قبلك، وضعًا للسبب، وهو تكذيبهم بموضع المسبب، وهو التأسي بهم.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (ولا يكتمونه) في قوله: (وإذا أخذ الله ميثاق الذين

(١) الكهف: ٤٩.
(٢) الفتح: ٢٧.
(٣) الأحزاب: ٧٢.

أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) والأول مغنٍ عن الثاني؟

قلنا: معناه ليبيننه في الحال، ويدومون على ذلك البيان فلا يكتمونه في المستقبل. الثاني أن الضمير الأول للكتاب، والثاني لنعت النبي ﷺ وذكره، فإنه قد سبق ذكر النبي ﷺ قبيل هذا.

فإن قيل: متى بينوا الكتاب لزم من بيانه بيان صفة النبي ﷺ ذلك لأنه من جملة الكتاب الذي هو التوراة والإنجيل، فقوله بعد ذلك ولا يكتمونه تكرار.

قلنا: على هذا يكون تأكيدًا.

وفي قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾ [آل عمران: ١٩٢].

فإن قيل: كيف قال: (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته)، وقال في موضع آخر: ﴿**يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾[(١)]، ويلزم من هذا ألا يدخل المؤمنين النار، كما قالت المعتزلة والخارجية؟

قلنا: أخزيته بمعنى: أذللته وأهنته من الخزي، وهو الذل والهوان، وقوله: ﴿**يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾ من الخزاية، وهي النكال والفضيحة فكل من يدخل النار يذل، وليس كل من يدخلها ينكل به ويفضح، أو المراد بالآية الأولى إدخال الإقامة والخلود، لا إدخال تحلة القسم المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿**وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾[(٢)] أو إدخال التطهير الذي يكون لبعض المؤمنين بقدر ذنوبهم، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾ كلام مبتدأ غير معطوف على ما قبله.

وفي قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فإن قيل: كيف قال: (سمعنا مناديًا)، والمسموع نداء المنادي، وقوله لا نفس المنادي؟

---

(١) التحريم: ٨.

(٢) مريم: ٧١.

قلنا: لما قال: (مناديًا ينادي) صار تقديره: نداء منادٍ، كما يقال: سمعت زيدًا يقول كذا، أي: سمعت قول زيد.

وفي قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا)، وتكفير السيئات داخل في غفران الذنوب؟

قلنا: الغفران محو السيئات بالحسنات.

فإن قيل: ما فائدة قولهم: (وتوفنا مع الأبرار) مع أنهم لا ينفعهم توفيهم مع الأبرار، بل النافع لهم كونهم من الأبرار، سواء توفاهم معهم أو قبلهم أو بعدهم؟

قلنا: معناه: وتوفنا مخصوصين بصحبتهم، معدودين في جملتهم، كما يقال: أعطاني الأمير مع أصحاب الخلع والجوائز، أي: جعلني من جملتهم، وإن تقدم إعطاؤه عنهم أو تأخر.

وفي قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ [آل عمران: ١٩٤].

فإن قيل: كيف قال: (وآتنا ما وعدتنا على رسلك) أي: على لسان رسلك، دعوة بإنجاز الوعد مع علمهم، وقولهم أيضًا: (إنه لا يخلف الميعاد)؟

قلنا: الوعد من الله تعالى على ألسنة الرسل للمؤمنين عام يحتمل أنه يراد به الخصوص، كما في أكثر عمومات القرآن، فسألوا الله أن يجعلهم من الداخلين في حكم الوعد. الثاني: أنهم سألوا تعجيل النصر الذي وعدوا، فإنه تعالى وعدهم النصر على أعدائهم غير مؤقت بوقت خاص.

وفي قوله تعالى: ﴿**لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ**﴾ [آل عمران: ١٩٦].

فإن قيل: كيف يجوز أن يغتر الرسول بنعم الذين كفروا حتى عن الاعتزاز بقوله تعالى: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) أي: تصرفهم نهوا فيها بالتجارات متنعمين؟

قلنا: معناه لا يغرنكم أيها المؤمنون، فإن رئيس القوم ومقدمهم يخاطب بشيء، والمراد به أتباعهم وجماعته، الثاني: أنه -عليه الصلاة والسلام- كان غير مغتر بحالهم، فقيل له ذلك تأكيدًا وتثبيتًا على الدوام عليه، كما قيل له: (فلا تكوننَّ ظهيرًا للكافرين -ولا تكونن من المشركين- فلا تطع المكذبين).

فإن قيل: كيف ينهى عن التقلب، وهو مما ليس بنهي؟

قلنا: معناه لا تغتر بتقلبهم، فيكون تقلبهم قد غرك، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب؛ لأن تقلبهم لو غره لاغتر به فمنع السبب وهو غرور تقلبهم إياه، ليمتنع المسبب وهو اغتراره بتقلبهم.

فإن قيل: كيف قال: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد)، ولم يقل: لا يغرنك نعمهم وأموالهم، والذي يحتمل أن يغر الرسول والمؤمنين النعم والأموال لا التقلب في البلاد؟

قلنا: المراد بتقلبهم تصرفهم في التجارات والنعم والتلذذ بالأموال، والفقير إنما يتألم وينكسر قلبه إذا رأى الغني يتقلب في النعمة ويتمتع بها فلذلك ذكر التقلب، وقيل: معناه: لا يغرنك تقلبهم في المعاصي غير مأخوذين بذنوبهم.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٩].

فإن قيل: كيف قال: (أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) مع أن قوله: «لهم أجرهم عند ربهم» موضع البشارة بالثواب وسرعة الحساب إنما تذكر في موضع التهديد والعقاب؟

قلنا: معناه لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً خوفًا من حسابه، فإنه سريع الحساب، فهو راجع إلى ما قبله.

***

سورة النساء

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

فإن قيل: قوله تعالى: (وخلق منها زوجها) إذا كانت حواء مخلوقة من آدم، ونحن مخلوقون منه أيضًا، تكون نسبة حواء إلى آدم نسبة الولد؛ لأنها متفرعة منه، فتكون أختًا لنا لا أمًّا؟

قلنا: قال بعض المفسرين: «من» لبيان الجنس لا للتبعيض، فمعناه: وخلق من جنسها زوجها كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[(١)]، الثاني وهو الذي عليه الجمهور: أنها للتبعيض، ولكن خلق حواء من آدم لم يكن بطريق التوليد كخلق الأولاد من الآباء، فلا يلزم منه ثبوت البنتية والأختية فيها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

فإن قيل: كيف قال: (وآتوا اليتامى أموالهم)، واليتيم لا يعطى ماله حتى يبلغ اتفاقًا؟

قلنا: المراد به إذا بلغوا، وإنما سموا يتامى لقرب عهدهم بالبلوغ باعتبار ما كان، كما تسمى الناقة عشراء بعد الوضع، وقد يسمى البالغ يتيمًا باعتبار ما كان، كما يسمى الحي ميتًا والعنب خمرًا باعتبار ما يكون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[(٢)]، وقال: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾[(٣)]، ومنه قولهم للنبي -عليه الصلاة والسلام- بعد ما نبأه الله: يتيم أبي طالب.

---

(١) التوبة: ١٢٨.
(٢) الزمر: ٣٠.
(٣) يوسف: ٣٦.

وفي قولـه تعـالى: ﴿وَآتُـوا الْيَتَـامَى أَمْـوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَـدَّلُوا الْخَبِيـثَ بِالطَّيِّـبِ وَلاَ تَـأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

فإن قيل: أكل مال اليتيم حرام وحده ومع أموال الأوصياء، فلم ورد النهي مخصوصًا عن أكله معها بقوله تعالى: (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) أي: معها؟

قلنا: لأن أكل مال اليتيم مع الاستغناء عنه أقبح، فلذلك خص بالنهي، ولأنهم كانوا يأكلونه مع الاستغناء عنه، فجاء النهي على ما وقع منهم.

وفي قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

فإن قيل: لما قال: (مما ترك الوالدان والأقربون) دخل في القليل والكثير، فما فائدة قوله: «مما قل منه أو كثر»؟

قلنا: إنما قال ذلك على جهة التأكيد والإعلام أن كل تركة تجب قسمتها، لئلا يتهاون بالقليل من التركات ويحتقر، فلا يقسم، وينفرد به بعض الورثة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١].

فإن قيل: كيف قال: (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان لـه ولـد) مع أنه لو كان الولد بنتًا فللأب الثلث؟

قلنا: الآية وردت لبيان الفرض دون التعصيب، وليس للأب مع البنت بالفرض إلا السدس.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

فإن قيل: كيف قطع على العاصي الخلود في النار بقولـه: (ومن يعصِ الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارًا خالدًا فيها)؟

قلنا: أراد به من يعص الله برد أحكامه وجحدها وذلك كفر، والكافر يستحق الخلود في النار.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٥].

فإن قيل كيف قال: (حتى يتوفاهن الموت)، والتوفي والموت بمعنى واحد، فصار كأنه قال: حتى يميتهن الموت؟

قلنا: معناه حتى يتوفاهن ملائكة الموت. الثاني معناه: حتى يأخذهن الموت ويستوفي أرواحهن.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

فإن قيل: كيف قال: (إنما التوبة على الله)، ولم يقل: إنما التوبة على العبد، مع أن التوبة واجبة على العبد؟

قلنا: معناه إنما قبول التوبة على الله بحذف المضاف. الثاني أن معنى التوبة من الله رجوعه على العبد بالمغفرة والرحمة؛ لأن التوبة في اللغة الرجوع.

فإن قيل: كيف قال: (بجهالة)، ولو عمله بغير جهالة ثم تاب قبلت توبته؟

قلنا: معناه بجهالة بقدر قبح المعصية وسوء عاقبتها، لا بكونها معصية وذنبًا، كل عاص جاهل بذلك حال مباشرة المعصية، معناه أنه مسلوب كمال العلم به بسبب غلبة الهوى وتزيين الشيطان.

فإن قيل: كيف قال: (ثم يتوبون من قريب) مع أنهم لو تابوا بعد الذنب من بعيد قبلت توبتهم؟

قلنا: معناه: قبل معاينة سلطان الموت، كذا قاله ابن عباس -رضي الله عنهما.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

فإن قيل: كيف قال: (وآتيتم إحداهن قنطارًا) الآية، مع أن حرمة الأخذ ثابتة وإن لم يكن قد أعطاها المهر، بل كان في ذمته أو في يده؟

قلنا: المراد بالإيتاء الضمان والالتزام كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم﴾[1] أي: ما غنمتم والتزمتم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

فإن قيل: كيف قال: (أتأخذونه بهتانًا)، وأخذ مهر المرأة ظلم وليس ببهتان؛ لأن البهتان الكذب؟

قلنا: قال ابن عباس وابن قتيبة: المراد بالبهتان الظلم، وقال الزجاج: المراد به الباطل، والمشهور في كتب اللغة: أن البهتان أن يقول الإنسان على غيره ما لم يفعله. قالوا: فالمراد به أن الرجل ربما رمى امرأته بتهمة ليتوصل بذلك إلى أن يأخذ منها مهرها ويفارقها، وقيل: المراد به إنكاره أن لها مهرًا في ذمته.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٢٢].

فإن قيل: كيف قال: (إلا ما قد سلف، ولا تنكحوا) نهى عن الفعل المستقبل، وإلا ما قد سلف ماض، فكيف يصح استثناء الماضي من المستقبل؟

قلنا: قيل: إن «لا» هنا بمعنى «بَعْدَ»، كما في قوله تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾[2]، وقيل: هو استثناء من محذوف تقديره: فإنكم تعذبون به إلا ما قد سلف، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: إنه كان فاحشة إلا ما قد سلف.

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) الدخان: ٥٦.

فإن قيل: كيف قال: (إنه كان فاحشة) بلفظ الماضي مع أن نكاح منكوحة الأب فاحشة في الحال، وفي الاستقبال إلى يوم القيامة؟

قلنا: «كان» تارة تستعمل للماضي المنقطع كقوله: كان زيد غنيًا، وكان الخزف طينًا، وتارة تستعمل للماضي المستمر المتصل للحال كقول أبي جندب الهذلي:

وَكُنتُ إِذا جاري دَعا لِمَضوفَةٍ أَشَمِّرِ حَتّى يَنصُفَ الساقَ مِئزَري

أي: وإني الآن؛ لأنه إنما يتمدح بصفة ثابتة له في الحال، لا بصفة زائلة ذاهبة، والمضوفة بالفاء: الأمر الذي يشفق منه، والقاف تصحيف، ومنه قوله تعالى ﴿**وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾[(١)]، ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾[(٢)].

وما أشبه ذلك، وما نحن فيه من هذا القبيل، وسيأتي تمام الكلام في «كان» بعد هذا إن شاء الله في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا**﴾[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء: ٢٣].

فإن قيل: كيف قال: (وربائبكم اللاتي في حجوركم) قيد التحريم بكون الربيبة في حجر زوج أمها، والحرمة ثابتة مطلقًا، وإن لم تكن في حجره؟

قلنا: أخرج ذلك مخرج العادة والغالب، لا مخرج الشرط والقيد، ولهذا اكتفى في موضع الحلال بنفي الدخول فتأمل نذره.

فإن قيل: لما قال: (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) ثم قال في آخر الآية: (وأحل لكم

(١) النساء: ٣٢.
(٢) الأحزاب: ٢٧.
(٣) النساء: ١٠٣.

ما وراء ذلكم) علم من مجموع ذلك أن الربيبة لا تحرم إذا لم يدخل بأمها فما فائدة قوله: (فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم)؟

قلنا: فائدته ألا يتوهم أن قيد الدخول خرج مخرج العادة والغالب لا مخرج الشرط كما في الحجر.

فإن قيل: كيف قال في نكاح الإماء: (فانكحوهن بإذن أهلن وآتوهن أجورهن) والمهر ملك المولى، وإنما يجب تسليمه إلى المولى لا إلى الأمة؟

قلنا: لما كانت الأمة، وما في يدها ملك المولى كان أداؤه إليها كأدائه إلى المولى. الثاني: أن معناه: وآتوا مواليهن أجورهن بطريق حذف المضاف.

وفي قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النساء: ٢٥].

فإن قيل: كيف قال: (ذلك لمن خشي العنت منكم)، وجواز نكاح الأمة ثابت من غير خوف العنت عند بعض العلماء؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: ذلك أصوب وأصلح لمن خشي العنت منكم فيكون شرطا لما هو الأرشد والأصلح، كما في قوله تعالى: ﴿**فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**﴾[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [النساء: ٢٦].

فإن قيل: كيف قال: (يريد الله ليبين لكم) والإرادة إنما تقرن بالبيان بأن يقال: أريد أن تفعل، وقال الله تعالى: (يريد الله أن يخفف عنكم)؟

قلنا: قد ورد في الكتاب العزيز اللام بمعنى «أن» كثيرًا قال الله تعالى: ﴿**وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ**﴾[(٢)] وقال الله تعالى: ﴿**وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[(٣)]، وقال تعالى في

(١) النور: ٣٣.
(٢) الشورى: ١٥.
(٣) الأنعام: ٧١.

موضع آخر: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[١]، وقال في موضع آخر: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُّطْفِئُوا﴾ كذلك هذا.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

فإن قيل: كيف خص التجارة بالذكر في قوله تعالى: (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) مع أن الهبة والصدقة والوصية والضيافة وغيرها يقتضي الحل أيضًا كالتجارة؟

قلنا: إنما خصها بالذكر لأن معظم تصرف الخلق في الأموال إنما هو بالتجارة، أو لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

فإن قيل: قوله تعالى: (لو تسوى بهم الأرض) قالوا: معناه أنهم يتمنون أن يجعلوا يوم القيامة ترابًا كما جاء في آخر سورة النبأ، وظاهر اللفظ يعطي أنهم يتمنون أن نجعل الأرض مثلهم ناسًا، كما تقول: سويت زيدًا بعمرو، والثاني: أن يكون المسوي مفعولاً والمسوى به آلة كقولك: سويت القلم بسكين والثوب بالمقراض، بمعنى أصلحته له.

قلنا: فقوله: (تسوى بهم الأرض) يحتمل الوجهين أن يكون بمعنى ساويت ويكون من المقلوب، أي: لو يسوون بالأرض بجعلهم ترابًا كقوله تعالى: ﴿لَتَنُوءُ﴾[٢] قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾[٣] في قول من لم يجعل الباء زائدة كقولهم: أدخلت الخاتم في أصبعي ونحوه، وأن يكون بمعنى الآلة معناه: ودوا لو تمهد بهم الأرض وتوطد بأن يجعلوا ترابًا ويبثوا في وهادها وحضيضها لتساوى بقاعها وآكامها، وقوله تعالى: ﴿لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا﴾ انخفاضًا ولا ارتفاعًا، وإن كان يدل على أن الأرض يوم القيامة متساوية بالسطوح، فجعلها متساوية السطوح إن كان قبل البعث، فإذا بعث الموتى من

(١) الصف: ٨.
(٢) القصص: ٧٦.
(٣) النساء: ٤٣.

قبورهم خلت منهم قبورهم وحفرهم، فحصل في الأرض تفاوت، وإن كان بعد البعث فيجوز أن يكون هذا التمني سابقًا على جعلها متساوية السطوح.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٤٦].

فإن قيل: قولنا هذا خير من ذلك، يقتضي أن يكون في كل واحد منهما خير حتى يصح تفضيل أحدهما على الآخر، لأن خيرًا في الأصل أفعل تفضيل، فكيف قال: (لكان خيرًا لهم وأقوم) بعدما سبق من قولهم في أول آية؟

قلنا: المراد بالخير هاهنا الخير الذي هو ضد الشر، لا الذي هو أفعل التفضيل كما تقول: في فلان خير.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء: ٤٧].

فإن قيل: كيف قال: (وكان أمر الله مفعولاً)، والمفعول مخلوق وأمر الله وقوله غير مخلوق؟

قلنا: ليس المراد بهذا الأمر ما هو صلة للنهي، بل المراد من الحوادث، فإن الحادثة تسمى أيضًا أمرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾[1]، وقوله: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَّشَاءُ﴾

[النساء: ٤٨].

(١) الطلاق: ١.

(٢) يونس: ٢٤.

فإن قيل: كيف قال: (إن الله لا يغفر أن يشرك به) مع أن شرك الساهي والمكره والتائب مغفور؟

قلنا: المراد به شرك غير هؤلاء المخصوصين من عموم الآية بأدلة من خارج؛ أو تقول: قيد المشيئة متعلق بالفعلين المنفي والمثبت، كأنه قال: إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء ويغفر لمن يشاء ما دونه.

فإن قيل: هذه الآية تدل على أن غير الشرك من الذنوب لا يقع بانتفاء مغفرته، بل ترجى مغفرته، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۞ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**﴾[1] يدل على القطع بانتفاء المغفرة في الكفر والظلم وهما غير الشرك، فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: المراد بالظلم هنا الشرك؛ قال مقاتل: والشرك يسمى ظلمًا، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[2] فكأنه قال: إن الذين أشركوا. الثاني: أن قوله تعالى: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَّشَاءُ**﴾ ليس قطعًا بالمغفرة لغير المشرك وهو تعليق للمغفرة له بالمشيئة؛ ثم بين بالآية الأخرى أن الكافر ليس داخلاً فيمن يشاء المغفرة له، فيتعين دخوله فيمن لا يغفر له؛ لأنه لا واسطة بينهما.

الثالث: أنه عام خص بالآية الثانية كما خص قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ بالآية الأولى، ويؤيد هذا إجماع الأمة على أن الكافر والمشرك سواء في عدم المغفرة والتخليد في النار، وفي قوله تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾[3].

وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾ [النساء: ٤٩].

فإن قيل: كيف قال: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء) ذمهم

(١) النساء: ١٦٨.
(٢) لقمان: ١٣.
(٣) البينة: ٦.

على ذلك، وقال أيضًا: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[١]، وقد زكى النبي ﷺ نفسه فقال: «**والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض**»، ويوسف عليه السلام قال: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾[٢].

قلنا: إنما قال ذلك حين قال المنافقون: اعدل في القسمة، تكذيبًا لهم حيث وصفوه بخلاف ما كان عليه من العدل والأمانة، وأما يوسف عليه السلام إنما قال ليتوصل به إلى ما هو وظيفة الأنبياء، وهو إقامة العدل وبسط الحق وإمضاء أحكام الله تعالى، ولأنه علم أنه لا أحد في ذلك الوقت أقوم منه بذلك العمل، فكان متعينًا عليه، فلذلك طلبه وأثنى على نفسه، ومع ذلك كله فإنه روي عن النبي -عليه الصلاة والسلام- أنه قال: «**رحم الله أخي يوسف لو لم يقل: اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة**».

وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾ [النساء: ٥١].

فإن قيل: كيف قال: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) إلى أن قال: (أولئك الذين لعنهم الله) حصر لعنته فيهم؛ لأن هذا الكلام للحصر، وليست لعنة الله منحصرة فيهم، بل هي شاملة لجميع الكفار؟

قلنا: قوله: (أولئك) إشارة إلى القائلين للذين كفروا: ﴿**هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً**﴾[٣]، وهذا القول موجود من جميع الكفار، فكانت اللعنة شاملة للجميع.

وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ [النساء: ٥٦].

فإن قيل: كيف قال: (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب) أخبر أنه يعذب جلودهم التي لم تعص مكان الجلود العاصية، وتعذيب البريء ظلم؟

---

(١) النجم: ٣٢.
(٢) يوسف: ٥٥.
(٣) النساء: ٥١.

قلنا: الجلود المجددة وإن عذبت فالألم بتعذيبها إنما يحصل للقلوب، وهي غير مجددة، بل هي العاصية باعتقاد الشرك ونحوه، والثاني: أن المراد بتبديلها إعادة النضيج غير نضيج، والجلود هي الجلود بعينها، وإنما قال غيرها باعتبار صفة النضيج وعدمه، كما قال الله تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾[1]، وأراد تبديل الصفات لا تبديل الذات، وكما قال الشاعر:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ... وما الدار بالدار التي كنت أعهد

وفي قوله تعالى: ﴿**وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً**﴾ [النساء: ٥٧].

فإن قيل: كيف قال: (وندخلهم ظلاً ظليلاً)، وليس في الجنة شمس ليكون فيها حر يحتاج بسببه إلى ظل ظليل أو غير ظليل؟

قلنا: هو مجاز عن المستقر المستلذ المستطاب؛ لأن بلاد الحجاز شديدة الحر، فأطيب ما عندهم موضع الظل، فخاطبهم بما يعقلون ويفهمون، كما قال ﷻ: ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾[2] لكن لما كان في عرفهم تمام نعمة الغذاء وكمال وظيفته أن يكون حاضرًا مهيأ في طرفي النهار فعبر عن حضوره وتهيئته بذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: ٦٩].

فإن قيل: كيف قال: (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)، وهذا مدح لمن يطيع الله والرسول، وعادة العرب في صفات المدح الترقي من الأدنى إلى الأعلى، وهذا عكسه لأنه نزول من الأعلى إلى الأدنى؟

قلنا: هذا ليس من الباب الذي ذكرتموه، بل هو كلام المقصود منه الإخبار عن كون المطيعين لله ورسوله يكونون يوم القيامة مع الأشراف فالخواص شركاء، ثم كأن سائلاً سأل: مَن الأشراف والخواص؟ ففصلوا له زيادة في الفائدة بعد تمام المعنى المقصود بالذكر بقوله: (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم)، وأتى في تفصيلهم بذكر الأشرف فالأشرف

(١) إبراهيم: ٤٨. (٢) النساء: ٣٩.

والأخص فالأخص؛ إذ هو الغالب في تعديد الأشراف والخواص كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[١]، وقوله: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾[٢] الآية، والدليل على أن المراد من الآية الإخبار جملةً لا تفصيلاً، أنه لما علم عباده أن يسألوه هذا المعنى، أرشدهم إلى طلبه مجملاً بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

فإن قيل: كيف قال: (إن كيد الشيطان كان ضعيفًا)، وقال في موضع آخر في حق النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[٤]، ومعلوم أن كيد الشيطان أعظم من كيد النساء؟

قلنا: المراد أن كيد الشيطان ضعيف في جنب نصرة الله وحفظه لأوليائه المخلصين من عباده كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[٥]، وقال حكاية عن إبليس: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٦] والمراد بالآية الأخرى أن كيد النساء عظيم بالنسبة إلى الرجال. الثاني: القائل: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ هو عزيز مصر، لا الله تعالى، فلا تناقض ولا معارضة.

وفي قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ فَمَا لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فإن قيل: كيف عاب على المشركين والمنافقين قولهم: (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) ورد عليهم ذلك بقوله: (قل كل من عند الله) ثم قال بعد ذلك: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن

(١) النساء: ٥٩.
(٢) آل عمران: ١٣.
(٣) الفاتحة: ٤.
(٤) يوسف: ٢٨.
(٥) الحجر: ٤٢.
(٦) الحجر: ٤٠.

نَّفْسِكَ﴾[١] وأخبره بعين قولهم المردود عليهم؟

قلنا: إن الثاني حكاية قولهم وفيه إضمار تقديره: (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا) فيقولون: (ما أصابك من حسنة) الآية.

وقيل معناه: ما أصابك أيها الإنسان من حسنة، أي: رخاء ونعمة فمن فضل الله، وما أصابك من سيئة، أي: قحط وشدة فبشؤم فعلك ومعصيتك لا بشؤم محمد عليه الصلاة والسلام كما زعم المشركون، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[٢].

فإن قيل: كيف قيل: إن الشر والمعصية بإرادة الله، والله تعالى يقول: (وما أصابك من سيئة فمن نفسك)؟

قلنا: ليس المراد بالحسنة والسيئة الطاعة والمعصية، بل القحط والرخاء والنصر والهزيمة على ما اختلفت فيه العلماء، ألا ترى أنه قال: (ما أصابك) ولم يقل: ما عملت من سيئة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ السؤال فيه من وجهين: أحدهما أنه يدل من حيث المفهوم على أن في القرآن اختلافًا قليلاً، وإلا لما كان للتقييد بوصف الكثرة فائدة، الثاني: أنه إنما يدل عدم الاختلاف الكثير في القرآن على أنه من عند الله، أن لو كان كل كتاب من عند غير الله فيه اختلاف كثير، وليس الواقع كذلك؛ لأن المراد من الاختلاف إما الكذب والتباين أو التناقض أو التفاوت بين بعضه وبعضه من الجزالة والبلاغة والحكمة وكثرة الفائدة.

قلنا: الجواب عن السؤال الأول أن التقييد بوصف الكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة، فكأنه قال: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا فضلاً عن القليل، وليس فيه اختلاف كثير ولا قليل فكيف يكون من عند الله؟ فهذا هو المقصود من التقييد بوصف الكثرة لا أن القرآن مشتمل على اختلاف قليل.

---

(١) النساء: ٧٩.

(٢) الشورى: ٣٠.

وعن السؤال الثاني أن كل كتاب في فن من العلوم إذا كان من عند غير الله يوجد فيه اختلاف ما بأحد التفاسير المذكورة لا محالة، يعرف ذلك بالاستقراء، والقرآن جامع لفنون من علوم شتى، فلو كان من عند غير الله لوجد فيه بالنسبة إلى كل فن اختلاف ما، فيصير مجموع الاختلاف اختلافًا كثيرًا.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [النساء: ٨٣].

فإن قيل: كيف قال: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً) استثنى القليل على تقدير انتفاء الفضل والرحمة، مع أنه لولا فضله بالهداية والعصمة ورحمته لاتبع الكل الشيطان من غير استثناء؟

قلنا: الاستثناء راجع إلى ما تقدم، تقديره: أذاعوا به إلا قليلاً. وقيل: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً. وقيل: معناه: ولولا فضل الله عليكم بإرسال الرسل لاتبعتم الشيطان في الكفر والضلال، إلا قليلاً منكم كانوا يهتدون بعقولهم إلى معرفة الله تعالى وتوحيده كما فعل قس بن ساعدة ونحوه قبل بعث النبي -عليه الصلاة والسلام.

فإن قيل على الجواب الأخير: إذا كان المراد أن من لوازم نفي الفضل والرحمة بالطريق الخاص، وهو بإرسال الرسل، اتباع الشيطان، ونفى الفضل والرحمة بالطريق الخاص معلوم في حق الرسول؛ لأنه لم يرسل إليه رسول، ومع هذا لم يتبع الشيطان؟

قلنا: لا نسلم أنه لم يرسل إليه رسول، بل أرسل إليه الملك وأنه رسول، الثاني: التقييد في الفضل والرحمة بتعيين الطريق يكون في حق الأمة، أما في حق الرسل ومن آمن بغير رسول يكون اللفظ باقيًا على ظاهره.

فإن قيل: هذه الآية تقتضي وجود فضله ورحمته المانع من اتباع أكثر الناس للشيطان مع أن الواقع خلافه، فإن أكثر الناس كفرة، يؤيده قوله ﷺ: «**الإسلام في الكفر كالشعرة البيضاء في الثور الأسود**».

قلنا: الخطاب في هذه الآية للمؤمنين لا لكل الناس.

فإن قيل: إذا كان الخطاب خاصًّا للمؤمنين، فما معنى الاستثناء، فإنه إن كان المراد به اتباعه فيما يدعو إليه ويوسوس من المعاصي فأكثر المؤمنين متبعون له في ذلك ولو في العمر مرة واحدة في بعض الكبائر، ولو كان المراد به اتباعه في دعائه إلى الكفر فأخذ من المؤمنين من لم يتبعه في الكفر.

قلنا: معناه: ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون ورحمته بالهداية بالرسول، لاتبعتم الشيطان في الكفر وعبادة الأصنام وغير ذلك، إلا قليلاً منكم كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل ونحوهما، فإنهما لولا الفضل والرحمة بالرسول لاتبعوا الشيطان بفضله ورحمته خصهم الله تعالى بها غير إرسال الرسول وهو زيادة الهداية ونور البصيرة.

وفي قوله تعالى: ﴿**اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا**﴾ [النساء: ٨٧].

فإن قيل: كيف قال: (ومن أصدق من الله حديثًا) مع أنه لا تفاوت بين صدق وصدق في كونه صدقًا كما في القول والعلم، لا يقال: هذا القول أقول، ولا هذا العلم أعلم، ولا هذا الصدق أصدق؛ لأن الصدق عبارة عن الإخبار المطابق للواقع، ومتى ثبت أنه مطابق للواقع لا يحتمل الزيادة والنقصان؟

قلنا: أصدق هنا صفة للقائل لا صفة للقول، والقائلان يتفاوتان في الصدق في نفس الأمر وإن تساويا في قضية واحدة أخبرا بها وكان كل واحد منهما صادقًا فيها، وحاصله أن هذا استفهام معناه النفي، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ**﴾[1] فمعناه: لا أحد يغفرها إلا الله، فمعناه هنا: لا أحد أصدق في حديثه من الله، فيكون ترجيحًا للمحدث على المحدث في الصدق لا ترجيحًا لأحد الصدقين على الآخر، ولا شك أنه لا أحد أصدق في حديث من الله؛ لأن غيره يجوز عليه غير الصدق عقلاً، ويقع منه أيضًا ولو نادرًا، والله تعالى منزه عن الأمرين جميعًا.

وفي قوله تعالى: ﴿**سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى**

(١) آل عمران: ١٣٥.

﴿الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١].

فإن قيل: قوله تعالى: (كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) يقال: ركسه وأركسه، أي: رده، فيصير معناه: كلما ردوا إلى الفتنة ردوا فيها وهو تكرار.

قلنا: جوابه أن الفاعل مختلف فانتفى التكرار وصار المعنى: كلما دعاهم قومهم إلى الشرك ردهم الله تعالى إليه وقلبهم بشؤم نفاقهم، فالرد الأول بمعنى الدعاء، والركس بمعنى الرد والنكس.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

فإن قيل: كيف قال: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطأ) مع أنه ليس له أن يقتله خطأ؟

قلنا: إلا بمعنى «ولا» كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۞ إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[(٢)]. الثاني: معناه أنه ليس له أن يقتله مع تيقن إيمانه، بل له أن يقتله إذا غلب على ظنه أنه ليس بمؤمن، وهو في صف المشركين، وإن كان في نفس الأمر مؤمنًا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

فإن قيل: كيف يقال: إن أهل الكبائر من المؤمنين لا يخلدون في النار والله تعالى يقول: (ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيمًا)؟

(١) النمل: ١٠. (٢) البقرة: ١٥٠.

قلنا: معناه: متعمدًا قتله بسبب إيمانه، والذي يفعل ذلك يكون كافرًا. الثاني: أن المراد بالخلود طول المكث؛ لأن الخلود إذا لم يكن بالأبدية يطلق على طول المكث، كما يقال: خلد السلطان فلانًا في الحبس، إذ أطال حبسه.

وفي قوله تعالى: ﴿**لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٩٥].

فإن قيل: كيف قال: (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) ثم قال: (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا درجات منه)؟

قلنا: المراد الأول التفضيل على القاعدين عن الغزاة بعذر، فإن لهم فضلاً لكونهم مع الغزاة بالهمة والعزيمة والقصد الصالح، ولهذا قال: (وكلا وعد الله الحسنى) يعني: الجنة، أي: من المجاهدين والقاعدين بعذر، والمراد بالثاني التفضل على القاعدين عن الغزاة بغير عذر، وأولئك لا فضل لهم بل هم مقصرون ومسيئون، فظهر فضل الغزاة عليهم بدرجات لانتفاء الفضل لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ٩٧].

فإن قيل: كيف صح قولهم: (كنا مستضعفين في الأرض) جوابًا لقول الملائكة: (فيم كنتم) والجواب: أن يقولوا: كنا في كذا أو لم نكن في شيء؟

قلنا: معنى: (فيم كنتم) التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا، فصار قوله: (فيم كنتم) مجازًا عن قوله: لم تركتم الهجرة؟ فقالوا: كنا مستضعفين، اعتذارًا عما وبخوا به تعللاً، فردت عليهم الملائكة ذلك بقولهم: (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) يعني: أنكم إن كنتم عاجزين عن الهجرة إلى المدينة لبعدها عليكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد القريبة منكم التي

تقدرون فيها على إظهار دين الإسلام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

فإن قيل: كيف قال: (فقد وقع أجره على الله) أي: وجب، والعبد لا يستحق على مولاه أجرًا؛ لأنه ليس بأجير له، إنما هو عبد قِنٌّ؟

قلنا: معناه: وجب من جهة أنه وعد عباده أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، والخلف في وعده ﷻ محال، فالوجوب من هذه الجهة، مع أن ذلك الوعد ابتداء فضل منه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

فإن قيل: كيف شرط في إباحة القصر للمسافر خوف العدو بقوله: (وإذا ضربتم في الأرض) الآية، والقصر جائز مع أمن المسافر؟

قلنا: خرج ذلك مخرج الغالب لا مخرج الشرط، وغالب أسفار رسول الله ﷺ وأصحابه لم تخل من خوف العدو، فصار نظير قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[1].

الثاني: أن الكلام قد تم عند قوله تعالى: ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ﴾ وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ كلام مستأنف، وجوابه محذوف تقديره: فاحتاطوا أو تأهبوا.

الثالث: أن المراد به القصر من شروطها وأركانها حالة اشتداد الخوف بترك الركوع والسجود والنزول عن الدابة واستقبال القبلة ونحو ذلك لا من عدد الركعات، وذلك القصر مشروط بالخوف.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ

(١) النور: ٣٣.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

فإن قيل: كيف قال: (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا)، وكان لفظ دال على الماضِ، والصلاة في الحال وإلى يوم القيامة أيضًا على المؤمنين فرض موقوت؟

قلنا: «كان» في القرآن العزيز على خمسة أوجه: كان بمعنى الأزل والأبد كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[(١)]، وكان بمعنى المضي المنقطع كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾[(٢)] وهو الأصل في معاني كان كما تقول: كان زيد صالحًا أو فقيرًا أو مريضًا ونحو ذلك. وكان بمعنى الحال كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾. وكان بمعنى الاستقبال كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[(٣)]. وكان بمعنى صار كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[(٤)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

فإن قيل: كيف قال: (وترجون من الله ما لا يرجون) والكافرون أيضًا يرجون الثواب في محاربة المؤمنين؛ لأنهم يعتقدون أن دينهم حق، وأنهم ينصرون دين الله ويذبون عنه ويقاتلون أعداءه كما يعتقد المؤمنون، فالرجاء مشترك!؟

قلنا: قيل: إن الرجاء هنا بمعنى الخوف كما في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾[(٥)] وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾[(٦)] وقول الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها[(٧)]

وعلى قول من قال: إنه بمعنى الأمل تقول: قد بشر الله المؤمنين في القرآن، ووعدهم بإظهار دينهم على الدين كله، ومثل هذه البشارة والوعد لم يوجد في سائر الكتب فافترقا.

---

(١) النساء: ١٧.
(١) النمل: ٤٨.
(٣) الإنسان: ٧.
(٣) ص: ٧٤.
(٥) نوح: ١٣.
(٥) الجاثية: ١٤.
(٧) ديوان أبي ذؤيب الهذلي.

وقيل: الرجاء يكون مستندًا إلى سبب صحيح ومقدمات والطمع ما يكون مستندًا إلى خلاف ذلك؛ فالرجاء للمؤمنين، وأما الكافرون فلهم طمع لا رجاء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (أو يظلم نفسه) بعد قوله: (ومن يعمل سوءًا) وظلم النفس من عمل السوء فهلا اقتصر على الأول؛ لأن الثاني داخل فيه؟

قلنا: «أو» بمعنى «الواو» فمعناه ويظلم نفسه بذلك السوء حيث دسّاها بالمعصية. وقيل: المراد بعمل السوء ما دون الشرك، وبظلم النفس الشرك، قيل: المراد بعمل السوء: الذنب المتعدي ضرره إلى الغير، وبظلم النفس: الذنب المقتصر ضرره على فاعله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

فإن قيل: قوله تعالى: (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) ظاهره نفي وجود الهم منهم بإضلاله، والمنقول في التفاسير أنهم هموا بإضلاله، وزادوا على الهم الذي هو القصد القول المضل أيضًا، يعرف ذلك من تفسير أول القصة وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[1].

قلنا: قوله: (لهمت) ليس جواب «لولا» بل هو كلام مقدم على لولا، وجوابها في التقدير مقول على تقدير القسم، وجواب «لولا» محذوف تقديره: لهمت طائفة منهم أن يضلوك ولولا فضل الله عليك ورحمته لأضلوك.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

(١) النساء: ١٠٥.

فإن قيل: النجوى فعل و«من» اسم، فكيف صح استثناء الاسم من الفعل في قوله تعالى: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة)؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: إلا نجوى من أمر بصدقة، فيكون استثناء الفعل من الفعل، ونظيره قوله تعالى: (ولكن البر من آمن بالله) تقديره: بر من آمن بالله.

فإن قيل: كيف قال: (إلا من أمر) ثم قال: (ومن يفعل ذلك)؟

قلنا: ذكر الآمر بالخير ليدل به على خيرية الفاعل له بالطريق الأولى، ثم ذكر الفاعل ووعده الأجر العظيم إظهارًا لفضل الفاعل المؤتمر على الأمر. الثاني: أنه أراد: ومن يأمر بذلك، فعبر عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر أنواع الفعل، وإذا كان الأمر موعودًا بالأجر العظيم كان الفعل موعودًا به بطريق الأولى.

وفي قوله تعالى: ﴿**إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا**﴾ [النساء:١١٧].

فإن قيل: كيف قال: (إن يدعون من دونه إلا إناثًا) أي: ما يعبدون من دون الله إلا اللات والعزى ومناة ونحوها وهي مؤنثة، ثم قال: (وإن يدعون إلا شيطانًا مريدًا) أي: ما يعبدون إلا الشيطان؟

قلنا: معناه أن عبادتهم للأصنام هي في الحقيقة عبادة للشيطان، إما لأنهم أطاعوا الشيطان فيما سول لهم وزين من عبادة الأصنام بالإغواء والإضلال، أو لأن الشيطان موكل بالأصنام يدعو الكفار إلى عبادتها شفاها ويتزيا للسدنة فيكلمهم ليضلهم.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً**﴾ [النساء: ١٢٢].

فإن قيل: كيف يقال: إن العبد يحكم بكونه من أهل الجنة بمجرد الإيمان، والله تعالى شرط لذلك العمل الصالح بظاهر قوله: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار)، وقوله: (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن)، وإلا لما كان للتقييد فائدة؟

قلنا: قيل: إن المراد بالعمل الصالح الإخلاص في الإيمان، وقيل: الثبات عليه إلى الموت، وكلاهما شرط في كون الإيمان سببًا لدخول الجنة.

غير مجزى بعمله، وكذلك من عمل سيئة ثم أتبعها حسنة؛ لأنها مذهبة لها وماحية بنص القرآن؟

قلنا: المراد من يعمل سوءًا ويمت مصرًّا عليه، الثاني: أن المؤمن يجازى في الدنيا بما يصيبه فيها من المرض وأنواع المصائب، والمحسن كما جاء في الحديث، والكافر يجازى في الآخرة.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾ [النساء: ١٢٤].

فإن قيل: كيف خص المؤمنين الصالحين بأنهم لا يظلمون بقوله: (ومن يعمل من الصالحات) الآية مع أن غيرهم لا يظلم أيضًا؟

قلنا: قوله: (ولا يظلمون نقيرا) راجع إلى الفريقين: عمال السوء وعمال الصالحات لسبق ذكر الفريقين. الثاني: أن يكون من باب الإيجاز والاختصار فاكتفى بذكره عقب الجملة الأخيرة عند ذكر أحد الفريقين لدلالته على إضماره عقب ذكر الفريق الآخر، ولا يظلم المؤمنون بنقصان ثواب طاعتهم ولا الكافرون بزيادة عقاب معاصيهم. الثالث: أن المراد بالظلم نفي نقصان ثواب الطاعات، وهذا مخصوص بالمؤمنين؛ لأن الكافرين ليس لهم على أعمالهم ثواب ينقص منه.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا**﴾ [النساء: ١٣٦].

فإن قيل: طلب الإيمان من المؤمنين تحصيل الحاصل، فكيف قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) الآية؟

قلنا: معناه: يا أيها الذين آمنوا بعيسى آمنوا بالله ورسوله محمد.

وقيل معناه: يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق آمنوا الآن. وقيل: معناه: يا أيها الذين آمنوا علانيةً آمنوا سرًّا.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ لم سمى ظفر المؤمنين فتحًا، وظفر الكافرين نصيبًا؟

قلنا: تعظيمًا لشأن المؤمنين وتحقيرًا لحظ الكافرين؛ لأن ظفر المسلمين أمر عظيم، لأنه متضمن نصرة دين الله وعزة أهله، تفتح له أبواب السماء حتى ينزل على أولياء الله، وظفر الكافرين ليس إلا حظًّا دنيويًّا وعرضًا من متاع الدنيا يصيبونه وليس متضمنًا شيئًا مما ذكرنا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

فإن قيل: كيف قال: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)، وقد نصر الكافرين على المؤمنين يوم أحد، وفي غيره أيضًا إلى يومنا هذا؟

قلنا: المراد به السبيل بالحجة والبرهان، والمؤمنون غالبون بالحجة دائمًا.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

[النساء: ١٤٥].

فإن قيل: كيف كان المنافق أشد عذابًا من الكافر حتى قال الله تعالى في حقه: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) مع أن المنافق أحسن حالاً من الكافر، بدليل أنه معصوم الدم وغيره محكوم عليه بالكفر، ولهذا قال الله تعالى في حقهم: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ﴾[1] فلم يجعلهم مؤمنين ولا كافرين؟

قلنا: المنافق وإن كان في الظاهر أحسن حالاً من الكافر إلا أنه عند الله في الآخرة

(١) النساء: ١٤٣.

أسوأ حالاً منه؛ لأنه شاركه في الكفر وزاد عليه الاستهزاء بالإسلام وأهله والمخادعة لله وللمؤمنين.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

فإن قيل: الجهر بالسوء غير محبوب لله تعالى أصلاً، بل المحبوب عنده العفو والصفح والتجاوز فكيف قال: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، أي: إلا جهر من ظلم.

قلنا: معناه ولا جهر من ظلم، فإلا بمعنى «ولا» قد سبق نظيره، وشاهد هذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾[1].

فإن قيل: كيف يجوز دخول «بين» على «أحد» في قوله تعالى: (ولم يفرقوا بين أحد منهم) وبين تقتضي اثنين فصاعدًا، يقال: فرقت بين زيد وعمرو، وبين القوم، ولا يقال فرقت بين زيد؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: (عوان بين ذلك) وفي آخر سورة البقرة أيضًا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٥٥].

فإن قيل: ما فائدة إعادة الكفر في الآية الثانية بقوله تعالى: (وبكفرهم) بعد قوله: (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله) الآية. قلنا: لأنه قد تكرر الكفر منهم، فإنهم كفروا بموسى وعيسى -عليهما السلام، ثم بمحمد -عليه الصلاة والسلام، فعطف بعض كفرهم على بعض.

فإن قيل: اليهود كانوا كافرين بعيسى عليه السلام يسمونه: الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، فكيف أقروا أنه رسول الله بقولهم: (إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول

(١) النساء: ٩٢.

الله)؟

قلنا: قالوه على طريق الاستهزاء كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

فإن قيل: كيف وصفهم بالشك بقوله: (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه) ثم وصفهم بالظن بقوله: (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) والشك تساوى الطرفين، والظن رجحان أحدهما؛ فكيف يكونون شاكين ظانين، وكيف استثنى الظن من العلم وليس الظن فردًا من أفراد العلم بل هو قسيمه؟

قلنا: استعمل الظن بمعنى الشك مجازًا لما بينهما من المشابهة في انتفاء الجزم، وأما استثناء الظن من العلم فهو استثناء من غير الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا﴾[٢] وما أشبهه.

وفي قوله تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]. فإن قيل: كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه لهم من الأدلة العقلية الموصلة إلى معرفته حتى قال: (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)؟

قلنا: الرسل والكتب منبهة من الغفلة، وباعثة على النظر في أدلة العقل ومفصلة لمجمل الدنيا وأحوال التكليف التي لا يستقل العقل بمعرفتها، فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميمًا لإلزام الحجة، لئلا يقولوا: (لولا أرسلت إلينا رسولاً) فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له.

وفي قوله تعالى: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].
(٢) مريم: ٦٢.

﴿بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

فإن قيل: كيف قال: (أنزله بعلمه) ولم يقل: أنزله بقدرته أو بعلمه وقدرته، مع أن الله تعالى لا يفعل إلا عن علم وقدرة؟

قلنا: أنزل وفيه علمه، أي: معلومة، أو معلمه من الشرائع والأحكام. وقيل: معناه: أنزله عليك بعلم منه أنك أولى بإنزاله عليك من سائر خلقه.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ١٧١].

فإن قيل: كلام الله صفة قديمة قائمة بذاته، وعيسى -عليه الصلاة والسلام- مخلوق وحادث، فكيف صح إطلاق الكلمة عليه في قوله تعالى: (رسول الله وكلمته)؟

قلنا: معناه: أن وجوده في بطن أمه كان بكلمة الله تعالى، وهو قوله: «كن» من غير واسطة أب، بخلاف غيره من البشر سوى آدم. وقيل: المراد بالكلمة الحجة.

فإن قيل على الوجه الأول: لو كان صحة إطلاق الكلمة على عيسى -صلوات الله على نبينا وعليه- بهذا المعنى يصح إطلاقها على آدم -عليه الصلاة والسلام؛ لأن هذا المعنى فيه أتم وأكمل، لأنه وجد بهذه الكلمة من غير واسطة أب ولا أم أيضًا.

قلنا: لا نسلم أنه لا يصح إطلاقها عليه لهذا المعنى، بل يصح.

فإن قيل: لو صح إطلاقها عليه لجاء به القرآن كما جاء في حق عيسى -عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: إنما جاء به لأن المجيء في حق عيسى -عليه والسلام- إنما كان للرد على من افترى عليه وعلى أمه ونسبه إلى أب، ولم يوجد هذا المعنى في حق آدم -عليه الصلاة والسلام- لاتفاق الناس كلهم على أنه غير مضاف إلى أب ولا إلى أم.

***

سـورة المائـدة

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

فإن قيل: كيف وجه الارتباط والمناسبة بين قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)، وقوله: (أحلت لكم بهيمة الأنعام)؟

قلنا: المراد بالعقود عهود الله تعالى عليهم في تحليل حلاله وتحريم حرامه فبدأ بالمجمل ثم أتبعه بالمفصل من قوله: (أحلت لكم بهيمة الأنعام) وقوله بعده: (حرمت عليكم الميتة) الآية.

فإن قيل: ما أكله السبع وعدم وتعذر أكله، فكيف يحسن فيه التحريم، حتى قال: (وما أكل السبع)؟

قلنا: معناه: وما أكل منه السبع، يعني الباقي بعد أكله.

وفي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

فإن قيل: قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا) يدل من حيث المفهوم عرفًا على أنه لم يرض لهم دينًا بالإسلام قبل ذلك اليوم، وليس كذلك، فإن الإسلام لم يزل دينًا مرضيًا للنبي ﷺ وأصحابه عند الله منذ أرسله -عليه الصلاة والسلام.

قلنا: قوله «اليوم» ظرف للجملتين الأوليين لا للجملة الثالثة؛ لأن الواو الأولى للعطف والثانية للابتداء؛ فالجملة الثالثة مطلقة غير مؤقتة.

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ

﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

فإن قيل: قوله تعالى: (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) كيف صلح جوابًا لسؤالهم والطيبات غير معلومة ولا متفق عليها؛ لأنها تختلف باختلاف الطباع والبقاع؟

قلنا: المراد بالطيبات هنا الذبائح، والعرب تسمى الذبيحة طيبًا، وتسمى الميتة خبيثًا، فصار المراد معلومًا، لكون عام مخصوصًا كغيره من العمومات.

فإن قيل: ما فائدة قوله: (مكلبين) بعد قوله: (وما علمتم من الجوارح) والمكلب هو المعلم من كلاب الصيد؟

قلنا: قد جاء في تفسير المكلب أيضًا أنه الغوي الجارح، والغوي له فعل، فعلى هذا لا يكون تكرارًا، وعلى القول الأول إنما عمم ثم خصص فقال: (مكلبين) بعد قوله: (وما علمتم) لأن غالب صيدهم كان بالكلاب، فأخرجه مخرج الغالب الواقع منهم.

فإن قيل: ظاهر قوله تعالى: (وما علمتم من الجوارح مكلبين) يقتضي إباحة الجوارح المعلمة، وهي حرام.

قلنا: فيه إضمار وتقديره: مصيد ما علمتم من الجوارح، يؤيده ما في تمام الكلام من قوله: (فكلوا مما أمسكن عليكم).

فإن قيل: المؤمن به هو الله لقوله تعالى: (قولوا آمنا بالله)؛ فالمكفور به يكون هو الله أيضًا، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾[1]، وإذا ثبت هذا فكيف قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ﴾[2] مع أنه لا يصح أن يقال: آمنَ بالإيمان فكذلك ضده؟

قلنا: المراد به: ومن يرتد عن الإيمان، يقال: كفر فلان بالإسلام إذا ارتد عنه، فكفر بمعنى ارتد؛ لأن الردة نوع من الكفر، والباء بمعنى «عن» كما في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾[4]، وقيل: المراد هنا بالإيمان المؤمن به

(١) البقرة: ٢٨.
(٢) المائدة: ٥.
(٣) المعارج: ١.
(٤) الفرقان: ٥٩.

تسمية للمفعول بالمصدر، كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾[1] أي: مصيده، وقولهم: ضرب الأمير ونسج اليمن.

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩].

فإن قيل: كيف قال: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم)، ولم يقل: وعملوا السيئات، مع أن الغفران يكون لفاعل السيئات لا لفاعل الحسنات؟

قلنا: كل أحد لا يخلو من سيئة صغيرة أو كبيرة، فإن كان ممن يعمل الصالحات، وهي الطاعات؛ فالمعنى: أن من آمن وعمل الحسنات غفرت له سيئاته، قال تعالى: (إن الحسنات يذهبن السيئات).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

فإن قيل: كيف قال في آخر قوله تعالى: (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل) الآية: (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) مع أن الذي كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل؟

قلنا: نعم، ولكن الضلال بعدما ذكر من النعم أقبح؛ لأن قبح الكفر بقدر عظم النعم المكفورة، فلذلك خصه بالذكر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النساء: ١٤].

فإن قيل: كيف قال: (ومن الذين قالوا إنا نصارى) ولم يقل ومن النصارى؟

---

(١) المائدة: ٩٦.

قلنا: لأن هؤلاء كانوا كاذبين في دعواهم أنهم نصارى، ادعاء لنصرة الله تعالى، وهم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعده نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارًا للشيطان، فقال ذلك توبيخًا لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

فإن قيل: كيف قال: «يا أهل الكتاب» الآية، ويعفو عن كثير مما كنتم تخفون من الكتاب، ويعفو عن كثير يعني: يتجاوز عن كثير مما كتموه من الكتاب فلا يظهره، ولا يبين كتمانهم إياه، فكيف يجوز للنبي ﷺ أن يمسك عن إظهار حق كتموه مما في كتبهم؟

قلنا: إنما لم يبين البعض لأنه كان يتبع الأمر ولا يفعل شيئًا من الأمور الدينية من تلقاء نفسه بل اتباعًا للوحي، فما أمر ببيانه بينه، وما لم يؤمر ببيانه أمسك عنه إلى وقت أمره ببيانه، وعلى هذا الجواب يكون لفظ العفو مجازًا عن الترك، فيكون قد أعلمه الله به وأطلعه عليه ولم يأمره ببيانه لهم فترك تبيانه لهم. الثاني: إنما كان في بيانه إظهار حكم شرعي كصفته ونعته والبشارة به، وآية الرجم ونحوها بيّنَة، وما لم يكن في بيانه حكم شرعي، ولكن فيه افتضاحهم وهتك أستارهم فإنه عفا عنه. الثالث: أن عقد الذمة اقتضى تقريرهم على ما بدلوا وغيروا من دينهم، إلا ما كان في إظهاره معجزة له وتصديقًا لنبوته ونعته وصفته، أو ما اختلفوا فيه فيما بينهم وتحاكموا إليه فيه، كحكم الزنا ونحوه.

وفي قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

فإن قيل: كيف قال: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه) مع أن العبد ما لم يهده الله أولا: لا يتبع رضوانه فيلزم الدور؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: يهدي به الله من يريد أن يتبع رضوانه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] أي: والذين أرادوا سبيل المجاهدة فينا لنهدينهم سبل مجاهدتنا.

(١) العنكبوت: ٦٩.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَّشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

فإن قيل: لم نر ولم نسمع أن قومًا من اليهود والنصارى، قالوا: نحن أبناء الله فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك؟ قلنا: المراد بقولهم أبناء الله خاصة الله، كما نقول: أبناء الدنيا وأبناء الآخرة. وقيل: فيه إضمار تقديره: أبناء أنبياء الله.

فإن قيل: كيف يصح الاحتجاج عليهم بقوله تعالى: (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) مع أنهم ينكرون تعذيبهم بذنوبهم، ويدعون أن ما يذنبون بالنهار يغفر بالليل، وما يذنبون بالليل يغفر بالنهار.

قلنا: هم كانوا مقرين أنه يعذبهم أربعين يومًا، وهي مدة عبادتهم العجل في غيبة موسى عليه السلام لميقات ربه، ولذلك قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[1] وقيل: أراد به العذاب الذي أوقعه ببعضهم في الدنيا من مسخهم قردة كما فعل بأصحاب السبت، وخسف الأرض بهم كما فعل بقارون، وهذا لا ينكرونه، وعلى هذا الوجه يكون المضارع بمعنى الماضي في قوله: (فلم يعذبكم) والإضافة إليهم بمعنى الإضافة إلى آبائهم، كأنه قال: فلم عذب آباءكم.

فإن قيل: قوله تعالى: (بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) إن أريد به يغفر لمن يشاء منكم أيها اليهود والنصارى، ويعذب من يشاء يلزم جواز المغفرة لهم، وإنه غير جائز لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[2] وإن أريد به يغفر لمن يشاء من المؤمنين ويعذب من يشاء لا يصلح جوابًا لقولهم.

قلنا: المراد به يغفر لمن يشاء منهم إذا تاب من الكفر. وقيل: يغفر لمن يشاء ممن خلق، وهم المؤمنون، ويعذب من يشاء، وهم المشركون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ

(١) البقرة: ٨٠.
(٢) النساء: ٤٨.

﴿أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

فإن قيل: كيف قيل: (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا) ولم يكن قوم موسى عليه السلام ملوكًا؟

قلنا: المراد جعل فيكم ملوكًا، وهم ملوك بني إسرائيل، وهم اثنا عشر ملكًا، لاثني عشر سبطًا، لكل سبط ملك. وقيل: المراد به أنه رزقهم المنازل الواسعة التي فيها المياه الجارية، وقيل: المراد: أنه رزقهم الصحة والكفاية والزوجة الموافقة والخادم والبيت فسماهم ملوكًا لذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

فإن قيل: من أين علم الرجلان أنهم غالبون حتى قالا: (فإذا دخلتموه فإنكم غالبون)؟

قلنا: من جهة وثوقهم بإخبار موسى صلى الله عليه وسلم بذلك بقوله: (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم)، وقيل: علما ذلك بغلبة الظن، وما عهداه مع صنع الله تعالى بموسى -عليه الصلاة والسلام- في قهر أعدائه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿عَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يدلُّ على أن من لم يتوكل على الله لا يكون مؤمنًا، وإلا لضاع التعليق، وليس كذلك.

قلنا: «إن» هنا بمعنى إذا، فتكون بمعنى التعليل كما في قوله: (وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين).

فإن قيل: كيف التوفيق بين قوله تعالى: (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) وبين قوله: (فإنها محرمة عليهم)[1]؟

قلنا: معناه: كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبوا الجهاد قيل: فإنها محرمة عليهم. الثاني: أن كل واحد منهما عام أريد به الخاص، فالكتابة للبعض وهم المطيعون،

(١) المائدة: ٢٦.

والتحريم على البعض وهم العاصون. الثالث: أن التحريم مؤقت بأربعين سنة، والكتابة غير مؤقتة، فيكون المعنى أن بعد مضى الأربعين يكون لهم. وهذا الجواب تام على قول من نصب الأربعين بمحرمة، وجعلها ظرفًا لها فأما من جعل الأربعين ظرفا لقوله: (يتيهون) مقدمًا عليه، فإنه جعل التحريم مؤبدًا، فلا يتأتى على قوله هذا الجواب؛ لأن التقدير عنده: فإنها محرمة عليهم أبدًا يتيهون في الأرض أربعين سنة، وهو موضع قد اختلف فيه المفسرون، والفراء من جملة من جوز نصب الأربعين بمحرمة ويتيهون، والزجاج من جملة من منع جواز نصبه بمحرمة، ونقل أن التحريم كان مؤبدًا، وأنهم لم يدخلوها بعد الأربعين، ونقل غيره أنه دخلها بعد الأربعين من بقى منهم وذرية من مات منهم، ويعضد الوجه الأول كون الغالب في الاستعمال تقدم الفعل على الظرف الذي هو عدد لا تأخره عنه، يقال: سافر زيد أربعين يومًا وما أشبه ذلك، وقلما يقال على العكس.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

فإن قيل: كيف قال: «إذ قربا قربانًا» ولم يقل قربانين، والذي قرباه كان قربانين؛ لأن كل واحد منهما قربانًا؟

قلنا: أراد به الجنس، فعبر عنه بلفظ الفرد كقوله تعالى: ﴿**وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا**﴾[(١)].

الثاني: أن العرب تطلق الواحد وتريد الاثنين، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ**﴾[(٢)] وقال الشاعر:

فَإِنِّي وَقَيّـــارٌ بِها لَغَريبُ

تقديره: فإني بها لغريب وقيار كذلك.

فإن قيل: صلح قوله: (إنما يتقبل الله من المتقين) جوابًا لقوله: (لأقتلنك)؟

قلنا: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل قال له ذلك كناية عن حقيقة الجواب وتعريضًا، معناه: إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من

(١) الحاقة: ١٧.
(٢) ق: ١٧.

لباس التقوى لا مني، فلم تقتلني؟

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

فإن قيل: كيف قال هابيل لقابيل: (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك) أي تنصرف بهما، مع أن إرادة السوء والوقوع في المعصية للأجنبي حرام، فكيف للأخ؟

قلنا: فيه إضمار حرف النفي تقديره: إني أريد ألا تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[١] أي: ألا تميد بكم، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾[٢]، وقول امرئ القيس:

فَقُلتُ يَمينَ اللهِ أَبرَحُ قاعِدًا[٣]

الثاني: أن فيه حذف مضاف تقديره: إني أريد انتفاء أن تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[٤] أي: حب العجل. الثالث: أن معناه: إني أريد ذلك إن قتلتني، لا مطلقًا. الرابع: أنه كان ظالمًا وجزاء الظالم بجنس إرادة من الله تعالى فتحسن من العبد أيضًا.

فإن قيل: قوله تعالى: (فأصبح من النادمين) يدل على أن قابيل كان تائبًا لقوله عليه الصلاة والسلام: «الندم توبة» فلا يستحق النار.

قلنا: لم يكن ندمه على قتل أخيه، بل على حمله على عنقه سنة، أو على عدم اهتدائه إلى الدفن الذي تعلمه من الغراب، أو على فقد أخيه لا على المعصية، ولو سلمنا أن ندمه على قتل أخيه، ولكن يجوز أن الندم لم يكن توبة في شريعتهم بل في شريعتنا، أو نقول: التوبة تؤثر في حقوق الله تعالى، لا في حقوق العباد، والدم من حقوق العباد فلا تؤثر فيه التوبة.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ

(١) النحل: ١٥.
(٢) يوسف: ٨٥.
(٣) ديوان امرئ القيس: ص٧٥ ط دار ثابت.
(٤) البقرة: ٥٣.

فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

فإن قيل: كيف يكون قتل الواحد كقتل الكل، وإحياء الواحد كإحياء الكل، والدليل يأباه من وجهين: أحدهما: أن الجناية كلما تعددت وكثرت كانت أقبح فتناسب زيادة الإثم والعقوبة، هذا هو مقتضى العقل والحكمة. الثاني: أن المراد بهذا التشبيه إما أن يكون تساوي قتل الواحد والكل في الإثم والعقوبة، أو تقاربهما، وإنما كان يلزم منه أنه إذا قتل الثاني أو الثالث وهلم جرا، أن لا يكون عليه إثم آخر، ولا يستحق عقوبة أخرى؛ لأنه أثم إثم قتل الكل واستحق عقوبة قتل الكل بمجرد قتل الأول أو الأول والثاني؛ لأن قتل الواحد إذا كان يساوي قتل الكل أو يقاربه، فقتل الاثنين يجعل عليه إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل، فكيف يزداد بعد ذلك بقتل الثالث والرابع وهلم جرا، وقتل الكل لما ازداد على إثم قتل الكل بقتل الكل، وعقوبة قتل الكل ولو قتل الكل عن إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل، ولا يجوز أن يستحق بقتل الواحد أو الاثنين إثم قتل الكل، وبقتل الكل إثم قتل الكل؟

قلنا: أقرب ما قيل فيه أن المراد من قتل نفس واحدة بغير حق كان جميع الناس خصومة في الدنيا إن لم يكن له ولي، وفي الآخرة مطلقًا؛ لأنهم من أب وأم واحدة. وقيل: معناه: من قتل نفسًا نبيًّا وإمامًا عادلاً فهو كمن قتل الناس جميعًا من حيث إبطال المنفعة عن الكل؛ لأن منفعتها عامة للكل.

وقيل: المراد بمن قتل هو قابيل، فإن عليه من الإثم بمنزلة إثم قتل الكل؛ لأنه أول من قتل، فكل قتل يوجد بعده يلحقه شيء من وزره بغلبة التسبب لقوله عليه الصلاة والسلام: «من سن سنة حسنة» الحديث، وهذا أحسن في المعنى، ولكن اللفظ لا يساعد عليه، وهو قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ لأن هذا المعنى إذ أريد به قابيل، لا تختص كتابته ببني إسرائيل.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ

﴿فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

فإن قيل: كيف وجه قوله تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية، وحقيقة المحاربة بين العبد والرب ممتنعة؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: يحاربون أولياء الله. وقيل: أراد بالمحاربة المخالفة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾[1] ولم يقل بهما، والمذكور شيئان؟

قلنا: قد سبق جواب مثله قبيل هذا في قوله: (إذ قربا قربانًا)، وهنا جواب آخر، وهو أن يكون وضع الضمير، موضع اسم الإشارة، كأنه قال: ليفتدوا بذلك، وذلك يشار به إلى الواحد والاثنين والجمع.

وفي قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

ما فائدة قوله تعالى: (فإن جاءوك فاحكم بينهم بما أنزل الله عليك وهو القرآن يدل عليه أول الآية، ولا تتبع أهواءهم في الحكم في التوراة بما أنزل الله أو أعرض عنهم، وحال النبي ﷺ مع أهل الكتاب إذا تحاكموا إليه لا يخلو عن هذين القسمين؛ لأنه إما أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) وحال النبي عليه الصلاة والسلام مع أهل الكتاب لا يخلو عن هذين القسمين؛ لأنه إما أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم؟

قلنا: فائدته تخيير النبي عليه الصلاة والسلام بين الحكم بينهم وعدمه، ليعلم أنه لا يجب عليه أن يحكم بينهم، كما يجب عليه ذلك بين المسلمين إذا تحاكموا إليه. وقيل: إن هذا التخيير منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾[2] وهو القرآن يدل عليه أول

(١) المائدة: ٣٦.
(٢) المائدة: ٤٨.

الآية: (ولا تتبع أهواءهم) في الحكم بالتوراة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

فإن قيل: لما أنزل الله القرآن صار الإنجيل منسوخًا به، فكيف قال: (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه)؟

قلنا: معناه: لما أنزلنا الإنجيل، وقلنا: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، وقيل: معناه: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من صدق نبوة محمد ﷺ بعلاماته المذكورة في الإنجيل، وذلك غير منسوخ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

فإن قيل: كيف قال: (فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) مع أن الكفار معاقبون بكل ذنوبهم؟

قلنا: أراد به عقوبتهم في الدنيا، وهو ما عجله في إجلاء بني النضير، وقيل: بني قريظة، وذلك جزاء بعض ذنوبهم؛ لأنه جزاء منقطع، وأما جزاؤهم على شركهم فهو الخلود في النار وذلك جزاء دائم لا يتصور وجوده في الدنيا، وقيل: بذلك البعض ذنب التولي عن الرضا بحكم القرآن، وإنما أبهمه تفخيمًا له وتعظيمًا.

فإن قيل: حسن حكم الله وصحته أمر ثابت على العموم بالنسبة إلى الموقنين وغير الموقنين، فكيف قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[(١)].

قلنا: لما كان الموقنون أكثر انتفاعًا به وأعلم قدرًا من غيرهم، بل هم المنتفعون به في الحقيقة لا غير، كانوا أخص به، فأضيف إليهم لذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾[(٢)].

(١) المائدة: ٥٠.

(٢) النازعات: ٤٥.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

فإن قيل: قوله تعالى: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) يقتضي أن يكون من واد أهل الكتاب وصادقهم كافرًا، وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾[1] الآية.

قلنا: المراد بقوله: (ومن يتولهم منكم) المنافقون؛ لأنها نزلت في شأنهم وهم كانوا من الكفار في الدنيا ضميرًا واعتقادًا، ومعناه أنه منهم في الآخرة جزاء، وعقابه أشد.

فإن قيل: كيف قال: (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) وكم من ظالم هداه الله تعالى فتاب وأقلع عن ظلمه؟

قلنا: معناه لا يهديهم ما داموا مقيمين على ظلمهم، الثاني: أن معناه: لا يهدي من قضى في سابق علمه أنه يموت ضالاً، الثالث: أن معناه: لا يهدي القوم الظالمين يوم القيامة إلى طريق الجنة، أي: المشركين.

فإن قيل: كيف قال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] ولم يقل أذلة للمؤمنين، وإنما يقال ذل له لا ذل عليه؟

قلنا: لأنه ضمن الذل معنى الحنو والعطف فعداه تعديته، كأنه قال: حانين على المؤمنين عاطفين عليهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

فإن قيل: كيف قال: (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) وكم مرة غلب حزب الله تعالى في زمن النبي ﷺ وبعده إلى يومنا هذا؟

قلنا: المراد به الغلبة بالحجة والبرهان، لا بالدولة والصولة، وحزب الله هم المؤمنون الغالبون بالحجة أبدًا.

---

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) المائدة: ٥٤.

فإن قيل: المثوبة مختصة بالإحسان، فكيف قال: (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) الآية.

قلنا: لا نسلم أن الثواب والمثوبة مختص بالإحسان، بل هو الجزاء مطلقًا، بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1] أي: هل جوزوا، وقوله تعالى: (فأثابكم غما بغم) وهو كلفظ البشارة، لا اختصاص له لغة بالخير السار، بل هو عام شامل، قال الله تعالى: (فبشرهم بعذاب أليم).

فإن قيل: ما فائدة إرسال الكتاب والرسول إلى أولئك الكثيرين الذين قال في حقهم: (وليزيدن كثيرًا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانًا وكفرًا)؟

قلنا: فائدة إلزام الحجة عليهم. الثاني: تعجيل الكتاب والرسول فإن الخطاب بالكتاب إذا كان عامًا والرسول إذا كان مرسلاً إلى الخلق كلهم كان ذلك أفخم وأعظم للرسول والمرسل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾

[المائدة: ٦٦].

فإن قيل: قوله تعالى: (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) الآية يقتضي تعلق الرخاء وسعة الرزق بالإيمان بالكتاب والعمل بما فيه، وليس كذلك فإن كثيرًا من المؤمنين بالكتب الأربعة العاملين بما فيها ما لم ينسخ، عيشهم في الدنيا منكد، ورزقهم مضيق.

قلنا: هذا التعليق خاص في حق أهل الكتب؛ لأنهم اشتكوا من ضيق الرزق حتى قالوا: (يد الله مغلولة) فأخبرهم الله تعالى أن ذلك التضييق عقوبة لهم بشؤم معاصيهم وكفرهم، والله تعالى يجعل ضيق الرزق وتقديره نعمة في حق بعض عباده، ونقمة في حق بعضهم، وكذلك الرخاء والسعة، فتعاقب بهما على المعصية، ويثيب بهما على الطاعة، ويختلف ذلك باختلاف أحوال الأشخاص، فلا يلزم من توسيع الرزق الإكرام، ولا من تضييقه الإهانة ولا يلزم عكسه أيضًا، ولهذا رد الله تعالى ذلك بقوله: (فأما الإنسان إذا ما

(١) المطففين: ٣٦.

ابتلاه ربه) إلى قوله: (كلا) أي: ليس الأمر كما ظن الإنسان وزعم من أن توسيع الرزق دليل الكرامة وتضييقه دليل الإهانة، بل دليل الكرامة هو الهداية والتوفيق للطاعات، ودليل الإهانة هو الإضلال وحرمة التوفيق.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٦٧].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) ومعلوم أنه إذا لم يبلغ المنزل إليه لم يكن قد بلغ الرسالة؟

قلنا: المراد حثه على تبليغ ما أنزل عليه من معايب اليهود ومثالبهم، فالمعنى بلغ الجميع، فإن كتمت منه حرفًا كنت في الإثم والمخالفة كمن لم يبلغ شيئًا ألبته، فجعل كتمان البعض ككتمان الكل. وقيل: أمر بتعجيل التبليغ كأنه ﷺ كان عازمًا على تبليغ جميع ما نزل إليه، إلا أنه أخر تبليغ البعض خوفًا على نفسه وحذرًا مع عزمه على تبليغه في ثاني الحال، فأمر بتعجيل التبليغ، يؤيد هذا القول قوله تعالى: «والله يعصمك من الناس».

فإن قيل: كيف ضمن الله تعالى لرسوله العصمة بقوله: «والله يعصمك من الناس» ثم إنه شج وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته؟

قلنا: المراد به العصمة من القتل، لا من جميع المكاره، فإن العصمة من جميع المكاره لا تناسب أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنهم جامعون لمكارم الأخلاق ومن أشرف مكارم الأخلاق تحمل الأذى. الثاني: أن هذه الآية نزلت بعد أحد؛ لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن.

وفي قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾ [المائدة: ٧٢].

فإن قيل: كيف قال: (وما للظالمين من أنصار) مع أن بعض الظالمين وهم العصاة من المؤمنين يشفع فيهم النبي ﷺ يوم القيامة فيكون ناصرًا لهم؟

قلنا: المراد بالظالمين هنا المشركون، يعلم ذلك من أول الآية ووسطها، فإن قيل: ما

فائدة قوله تعالى: (وضلوا عن سواء السبيل) بعد قوله: (قد ضلوا من قبل)؟

قلنا: المراد بالضلال الأول ضلالهم عن الإنجيل، وبالضلال الثاني ضلالهم عن القرآن.

وفي قوله تعالى: ﴿كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

فإن قيل: قوله تعالى: (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) والنهي عن المنكر بعد فعله ووقوعه لا معنى له؟

قلنا: فيه إضمار حذف مضاف تقديره: كانوا لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله، كما يرى الإنسان أمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوى وتهيأ فينكر، ويجوز أن يريد بقوله: (لا يتناهون) لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه، بل يصرون عليه ويداومون، يقال: تناهي عن الأمر وانتهى عنه بمعنى واحد، أي: امتنع عنه وتركه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١].

فإن قيل: كيف قال: (ولكن كثيرا منهم فاسقون) والمراد بقوله منهم المنافقون أو اليهود على اختلاف القولين، وكلهم فاسقون؟

قلنا: المراد به فسقهم بموالاة المشركين ودس الأخبار إليهم، لا مطلق الفسق، وذلك الفسق الخاص مخصوص بكثير منهم، وهم المذكورون في أول الآية في قوله: (ترى كثيرًا منهم) الآية لا شامل لجميعهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فإن قيل: كيف قال: (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) وهذه الأعيان كلها مخلوقات لله تعالى، فأين عمل الشيطان في وجودها؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: إنما تعاطي الخمر والميسر إلى آخره أو مباشرته إلخ.

فإن قيل: مع هذا الإضمار كيف قال: (من عمل الشيطان) وتعاطي الخمر والقمار

ونحوهما من عمل الإنسان حقيقة؟

قلنا: إنما أضيف إلى الشيطان مجازًا لأنه هو السبب في وجود الفعل بواسطته ووسوسته وتزيينه ذلك للفساق فصار كما لو أغرى رجلاً بضرب آخر فضربه، فإنه يجوز أن يقال للمغري: هذا من عملك، ونظيره قوله تعالى: ﴿**فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٩٠].

فإن قيل: كيف جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام في الآية الأولى ثم خص الخمر والميسر في الآية الثانية؟

قلنا: لأن العداوة والبغضاء بين الناس تقع كثيرًا بسبب الخمر والميسر وكذلك يشتغلون بهما عن الطاعة، بخلاف الأنصاب والأزلام فإن هذه المفاسد لا توجد فيها، وإن كانت فيها مفاسد أخر. وقيل: إنما كرر ذكر الخمر والميسر فقط؛ لأن الخطاب للمؤمنين، بدليل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا) وهم إنما يتعاطون الخمر والميسر فقط، وإنما جمع الأربعة في الآية الأولى ليبين للمؤمنين أن هذه الأربعة من أعمال الجاهلية، وأنه لا فرق بين من عبد صنمًا أو أشرك بالله تعالى بدعوة علم الغيب، وبين من شرب الخمر أو قامر مستحلاً لهما.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٩٤].

فإن قيل: كيف يحسن أن يفعل الله تعالى فعلاً يتوسل إلى تحصيل علم حتى قال: (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم من يخافه بالغيب)؟

قلنا: معناه ليميز الله الخائف من غير الخائف عند الناس. وقيل: معناه ليعلم عباد الله من يخافه بالغيب، وهو قريب من الأول، وقيل: معناه ليعلم الخوف واقعًا كما علمه منتظرًا.

---

(١) القصص: ١٥.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة:٩٥].

فإن قيل: كيف قال: (ومن قتله منكم متعمدًا فجزاء مثل ما قتل من النعم) ووصف العمدية ليس بشرط لوجوب الجزاء، فإنه لو قتله ناسيًا أو مخطئًا وجب الجزاء أيضًا؟

قلنا: عند ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وصف العمدية شرط لوجوب الجزاء، فلا يرد عليهم السؤال، وأما على قول الجمهور فإنما قيده بوصف العمدية؛ لأن الواقعة التي كانت سبب نزول الآية كانت عمدًا، على ما يروى عن الصحابة أنه اعترض حمار وحش بالحديبية وهم محرمون، فطعنه أبو اليسر برمحه فقطعه، فنزلت الآية، فخرج وصف العمدية مخرج الواقع، لا مخرج الشرط، وقال الزهري: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السنة بالوجوب في الخطأ.

فإن قيل: كيف قال: (هديًا بالغ الكعبة) مع أن الشرط بلوغه إلى الحرم لا غير؟

قلنا: لما كان المقصود من بلوغ الهدى إلى الحرم تعظيم الكعبة، ذكر الكعبة تنبيهًا على ذلك. وقيل: معناه بالغ حرم الكعبة.

وفي قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

فإن قيل: قوله تعالى: (جعل الله الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم) أي: دلالة لهذه الأمور المذكورة على علم الله تعالى بما في السماوات وما في الأرض وأنه بكل شيء عليم؟

قلنا: ذلك إشارة إلى كل ما سبق ذكره من الغيوب في هذه السورة من أحوال الأنبياء والمنافقين واليهود لا إلى المذكور في هذه الآية. الثاني: أن العرب كانت تسفك الدماء وتنهب الأموال، فإذا دخل الشهر الحرام أو دخلوا إلى البلد الحرام كفوا عن ذلك، فعلم

الله تعالى أنه لو يجعل لهم زمانًا أو مكانًا يقتضي كفهم عن القتل ونهب الأموال لهلكوا، فظهرت المناسبة.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

فإن قيل: كيف قال: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) والجعل هو الخلق بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[٢] وخالق هذه الأشياء هو الله تعالى؟

قلنا: المراد بالجعل هنا الإيجاب والأمر، أي: ما أوجبها، ولا أمر بها، وقيل: المراد بالجعل التحريم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

فإن قيل: قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) يدل على عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما واجبان؟

قلنا: معنى قوله: (عليكم أنفسكم) أي: أهل دينكم كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[٣] أي: أهل دينكم. وقيل: المراد به آخر الزمان عند فساد الزمان وتعذر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو زماننا هذا.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

فإن قيل: كيف يقول الرسل: (لا علم لنا) إذا قال الله تعالى لهم: (ماذا أجبتم) وهم عالمون بماذا أجيبوا؟

قلنا: هذا جواب الدهشة والحيرة حين تطيش عقولهم من زفرة جهنم نعوذ بالله تعالى منها، ومثله لا يفيد نفي العلم ولا إثباته. الثاني: أنهم قالوا ذلك تعريضًا بالتشكي من

(١) الأعراف: ١٨٩. (٢) الأنعام: ١.
(٣) النساء: ٢٩.

قومهم، وإظهارًا للالتجاء إلى الله تعالى في الانتقام منهم؛ لأنهم قالوا: أنت أعلم بما أجابونا به من التصديق والتكذيب. الثالث: معناه: لا علم لنا بحقيقة ما أجابونا به، لأنا نعلم ظاهره وأنت تعلم ظاهره ومضمره، ويؤيده ما بعده.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

فإن قيل: أي معجزة لعيسى ﷺ في تكليم الناس كهلاً حتى قال: (يكلم الناس في المهد وكهلاً)؟

قلنا: قد سبق جوابه في سورة آل عمران مستقصى.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

فإن قيل: كيف قال الحواريون: (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) شكوا في قدرة الله تعالى على بعض الممكنات، وذلك كفر، ووصفوه بالاستطاعة وذلك تشبيه؛ لأن الاستطاعة إنما تكون بالجوارح، والحواريون خلص أتباع عيسى عليه السلام والمؤمنون به، بدليل قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[1].

قلنا: هذا استفهام عن الفعل لا عن القدرة، كما يقول الفقير للغني القادر: هل تقدر أن تعطيني شيئًا، وهذا يسمى استطاعة المطاوعة لا استطاعة القدرة.

فإن قيل: لو كان المراد هذا المعنى فلم أنكر عليهم عيسى عليه السلام بقوله: (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين)؟

قلنا: إنكاره عليهم إنما كان لأنهم أتوا بلفظ يحتمل المعنى الذي لا يليق بالمؤمن

(١) آل عمران: ٥٢.

المخلص أرادوا به وإن كانوا لم يريدوه.

فإن قيل: كيف قال عيسى عليه السلام: (ولا أعلم ما في نفسك) وكل ذي نفس فهو ذو جسم؛ لأن النفس عبارة عن الجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير، والله تعالى منزه عن الجسم؟

قلنا: النفس تطلق على معنيين: أحدهما هذا، والثاني حقيقة الشيء وذاته كما يقال: نفس الذهب والفضة محبوبة، أي: ذاتهما، والمراد به في الآية ثانيًا هذا المعنى.

وفي قوله تعالى: ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [المائدة: ١١٧].

فإن قيل: كيف قال عيسى عليه السلام: (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به) الآية، مع أنه قال لهم كثيرًا من الكلام المباح غير الأمر بالتوحيد؟

قلنا: معناه ما قلت لهم فيما يتعلق بالإله.

فإن قيل: إذا كان عيسى عليه السلام لم يمت وإنما هو حي في السماء فكيف قال: (فلما توفيتني)؟

قلنا: أراد بالتوفي إتمام مدة إقامته بينهم في الأرض، وإتمامه قد سبق مرة في قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾[1] والسؤال إنما يتوجه على قول من قال: إن السؤال والجواب وجدا يوم رفعه إلى السماء، وأما من قال: إن السؤال إنما يكون يوم القيامة، وعليه الجمهور، فالجواب مطابق ولا إشكال فيه.

وفي قوله تعالى: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾

[المائدة: ١١٨].

فإن قيل: لو قال عيسى عليه السلام: إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وإن تغفر لهم فإنهم عبادك، كان أظهر مناسبة؟

قلنا: معناه إن تعذيبهم فإنهم عبادك، وتصرف المالك المطلق الحقيقي في عبيده مباح، أي تصرف كان، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم الذي لا ينقص من عزه شيء بترك

(١) آل عمران: ٥٥.

العقوبة والانتقام ممن عصاه الحكيم في كل ما يفعله من العذاب أو المغفرة.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

فإن قيل: كيف قال: (يوم ينفع الصادقين صدقهم) يعني يوم القيامة، والصدق نافع في الدنيا والآخرة، ولفظ الآية في قوة الحصر؟

قلنا: لما كان نفع الصدق في الآخرة هو الفوز بالجنة والنجاة من النار ونفعه في الدنيا دون ذلك، كان كالعدم بالنسبة إلى نفعه في الآخرة، فلم يعتد به في مقابلته.

فإن قيل: قوله: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) إن أراد صدقهم في الآخرة فالآخرة، ليست بدار عمل، وإن أراد به صدقهم في الدنيا، فليس بمطابق لما ورد فيه، وهو الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟

قلنا: أراد به الصدق المسمى بالصادقين في دنياهم وآخرتهم، وعن قتادة رضي الله عنه: متكلمان صدقا يوم القيامة فنفع أحدهما صدقه دون الآخر: أحدهما إبليس قال: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾[1] الآية، فصدق يومئذ ولم ينفعه صدقه؛ لأنه كان كاذبًا قبل ذلك، والآخر عيسى عليه الصلاة والسلام كان صادقًا في الدنيا والآخرة فنفعه صدقه.

وفي قوله تعالى: ﴿لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[المائدة: ١٢٠].

فإن قيل: ما في السموات والأرض العقلاء وغيرهم، فهلا غلب العقلاء فقال: لله ملك السموات والأرض ومن فيهن؟

قلنا: لأن كلمة «ما» تتناول الأجناس كلها تناولاً عامًّا بأصل الوضع و«من» لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع، فكان استعمال «ما» في هذا الموضع أولى.

---

(١) إبراهيم: ٢٢.

سورة الأنعام

وفي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

فإن قيل: كيف جمع الظلمة وأفرد النور في قوله تعالى: (وجعل الظلمات والنور)؟

قلنا: ترك جمعه استغناء عنه بجمع الظلمة قبله فإنه يدل عليه، كما ترك جمع الأرض أيضًا استغناء عنه بجمع السماء قبله في قوله تعالى: (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض). الثاني: أن الظلمة اسم والنور مصدر «فعله المفضل» والمصادر لا تجمع.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وجهركم) بعد قوله: (يعلم سركم) ومعلوم أن من يعلم السر يعلم الجهر بالطريق الأولى؟

قلنا: إنما ذكره للمقابلة كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[1] في بعض الوجوه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

فإن قيل: كيف خص السكون بالذكر دون الحركة في قوله تعالى: (وله ما سكن في الليل والنهار) على قول من فسره بما يقابل الحركة؟

قلنا: لأن السكون أغلب الحالتين على كل مخلوق من الحيوان والجماد، ولأن الساكن من المخلوقات أكثر عددًا من المتحرك، أو لأن كل متحرك يصير إلى السكون من غير عكس، أو لأن السكون من الأصل والحركة حادثة عليه عارضة. وقيل فيه إضمار تقديره: ما سكن وتحرك فاكتفى بأحدهما اختصارًا لدلالته على مقابله كما في قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ

(١) البقرة: ٢٠٣.

﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[1] أي: والبرد.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

فإن قيل: كيف قال: (وهو يطعِم ولا يطعَم) ولم يقل: وهو منعم ولا ينعم عليه، وهذا أعم لتناوله الإطعام وغيره؟

قلنا: لأن الحاجة إلى الرزق أمس، فخص بالذكر، والثاني أن كون المعبود آكلا متغوطًا أقبح من كونه منعمًا عليه، فلذلك ذكره.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

فإن قيل: قوله تعالى: (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله) يقتضي أن يسمى الله تعالى شيئًا، ولو صح ذلك لصح نداؤه به كالحي القيوم ونحوهما؟

قلنا: صحة ندائه تعالى مخصوصة بما يدل على المدح وصفة الكمال كالحي والقيوم ونحوهما، لا بكل ما يصح إطلاقه عليه؛ ألا ترى أن الموجود والثابت يصح إطلاقه عليه سبحانه وتعالى ولا يصح نداؤه به؟ كذا ذكروا.

فإن قيل: استشهاد المدعي بالله لا يكفي في صحة دعواه وثبوتها شرعًا حتى لو قال المدعي: الله شاهدي، لا يكفيه، فكيف صح ذلك من النبي ﷺ حيث قال: (قل الله شهيد بيني وبينكم)؟

قلنا: إنما لم يصح ذلك من غير النبي ﷺ، لأنه لا يقدر على إقامة الدليل على أن الله تعالى يشهد له، والنبي ﷺ أقام الدليل على ذلك بقوله: (وأوحى إلى هذا القرآن) لأنه معجزة.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

[الأنعام:٢٣].

فإن قيل في قوله تعالى: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) كيف

(١) النحل: ٨١.

يكذبون يوم القيامة بعد معاينة حقائق الأمور، وقد بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور؟

قلنا: المبتلي يوم القيامة ينطق بما ينفعه وبما يضره لعدم التمييز بسب الحيرة والدهشة، كحال المبتلي المعذب في الدنيا يكذب على نفسه وعلى غيره، ويتكلم بما يضره،ألا تراهم يقولون: (ربنا أخرجنا منها) وقد أيقنوا بالخلود فيها، وقالوا: ﴿**يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾[١] وقد علموا أنه ﴿**لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا**﴾[٢].

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا**﴾[٣].

قلنا: للقيامة مواقف مختلفة؛ ففي بعضها لا يكتمون، وفي بعضها يحلفون كاذبين، كما قال ﷻ: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٤] وقال تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ**﴾[٥] وقيل: إن حلفهم كاذبين يكون قبل شهادة جوارحهم عليهم ﴿**وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا**﴾ يكون بعد.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٢].

فإن قيل: كيف قال: (وللدار الآخرة خير للذين يتقون) وهي خير لغير المتقين أيضًا كالأطفال والمجانين؟

قلنا: إنما خصهم بالذكر لأنهم الأصل فيها من حيث إن درجتهم أعلى وغيرهم تبع لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأنعام: ٣٥].

---

(١) الزخرف: ٧٧.
(٢) فاطر: ٣٦.
(٣) النساء: ٤٢.
(٤) الحجر: ٩٢.
(٥) الرحمن: ٣٩.

فإن قيل: كيف قال لمحمد ﷺ: (فلا تكونن من الجاهلين) فخاطبه بأفحش الخطابين، وقال لنوح ﷺ: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1] فخاطبه بألين الخطابين، مع أن محمدًا ﷺ أعظم رتبة وأعلى منزلة منه؟

قلنا: لأن نوح عليه الصلاة والسلام كان معذورًا في جهله بمطلوبه؛ لأنه تمسك بوعد الله تعالى في إنجاء أهله، فظن أن ابنه من أهله ومحمد ﷺ ما كان معذورًا لأنه كبر عليه كفرهم وإيمانهم بمشيئة الله تعالى، وأنهم لا يهتدون إلا أن يهديهم الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

فإن قيل: إذا بعث الله تعالى الموتى من قبورهم فقد رجعوا إليه بالحياة بعد الموت، فما فائدة قوله تعالى: (والموتى يبعثهم الله، ثم إليه يرجعون)؟

قلنا: المراد به وقوفهم بين يديه للحساب والجزاء، وذلك غير البعث وهو إحياؤهم بعد الموت، فلا تكرار فيه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

فإن قيل: قوله تعالى: (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية) لو صح من النبي ﷺ هذا الجواب لصح لكل من ادعى النبوة وطولب بآية أن يقول: إن الله قادر على أن ينزل آية؟

قلنا: إذا ثبتت نبوته بما شاء الله من المعجزة يصح له أن يقول ذلك، بخلاف ما إذا لم تثبت نبوته، والنبي ﷺ قد ثبتت نبوته بالقرآن، وانشقاق القمر وغيرهما.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وما من دابة في الأرض) والدابة لا تكون إلا في

(١) هود: ٤٦.

الأرض؛ لأن الدابة في اللغة اسم لما يدب على الأرض، وما فائدة: (ولا طائر يطير بجناحيه) والطيران لا يكون إلا بالجناح؟

قلنا: فيه فوائد: الأولى: للتأكيد كقولهم: هذه نعجة أنثى، وقولهم: كلمته بلساني، ومشيت إليه برجلي، وكما قال الله تعالى: ﴿لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[2]. الثانية: نفي توهم المجاز، فإنه يقال: طار فلان في أمر كذا إذا أسرع فيه، وطار الفرس إذا أسرع الجري. الثالثة: زيادة التعميم والإحاطة كأنه قال: جميع الدواب الدابة وجميع الطيور الطائرة.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠].

فإن قيل: قوله تعالى: (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة) إلى أن قال: (فيكشف ما تدعون إليه) ومن جملة ما ذكر: الدعاء فيه عذاب الساعة، وهو لا يكشف عن المشركين؟

قلنا: لم يخبر عن الكشف مطلقًا؛ بل مقيدًا بشرط المشيئة، وعذاب الساعة لو شاء كشفه عن المشركين لكشفه.

وفي قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

فإن قيل: قوله تعالى: (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك) كيف ذكر القول في الجملة الأولى والثالثة وترك ذكره في الجملة الثانية؟

قلنا: لما كان الإخبار بالغيب كثيرًا مما يدعيه البشر كالكهنة والمنجمين وواضعي الملاحم، ثم إن كثيرًا من الجهال يعتقدون صحة أقاويلهم ويعملون بمقتضى أخبارهم - بالغ في سلبه عن نفسه بسلب حقيته عنه بخلاف الإلهية والملكية، فإن انتفاءهما عنه وعن

(١) النحل: ٥١.
(٢) آل عمران: ١٦٧.

غيره من البشر ظاهر، فاكتفى في نفيهما بنفي القول، إذ غير الدعوة فيهما لا تتصور في نفس الأمر ولا في زعم الناس، بخلاف علم الغيب فافترقا، والمراد (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله) أي: لا أدعي الإلهية، كذا قاله بعض المفسرين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

فإن قيل: قوله تعالى: (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) كيف ذكر سبيل المجرمين ولم يذكر سبيل المؤمنين، وكلاهما محتاج إلى بيانه؟

قلنا: لأنه إذا ظهر سبيل المجرمين ظهر سبيل المؤمنين أيضًا بالضرورة إذ السبيل سبيلان لا غير.

الثاني: أن سبيل المؤمن مراد تقديرًا وإنما حذف احتقارًا لدلالة المذكورة عليها كما في قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[1] أي: والبرد.

وفي قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

فإن قيل: كيف قال: (ويعلم ما جرحتم بالنهار) أي: ما كسبتم، وهو يعلم ما جرحوا ليلاً ونهارًا؟

قلنا: لأن الكسب أكثر ما يكون بالنهار؛ لأنه زمان حركة الإنسان، والليل زمان سكونه لقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾[2] بعد قوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

فإن قيل: كيف قال: (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) يعني: جميع الخلائق، وقال في

(١) النحل: ٨١.
(٢) القصص: ٧٣.
(٣) القصص: ٧٢.

موضع آخر: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾[١]؟

قلنا: المولى الأول بمعنى المالك أو الخالق أو المعبود، والمولى الثاني بمعنى الناصر، فلا تنافي بينهما.

فإن قيل: كيف خص كون (قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور) مع أن قوله الحق في كل وقت وله الملك في كل زمان؟

قلنا: لأن ذلك اليوم ليس لغيره فيه ملك بوجه من الوجوه، وفي الدنيا لغيره ملك خلافة عنه أو هبةً منه وإنعامًا، بدليل قوله تعالى في حق داود عليه السلام: (وآتاه الله الملك والحكمة) وقوله: ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾[٢] وقوله في ذلك اليوم هو الحق الذي لا يدفعه أحد من العباد، ولا يشك فيه شاك من أهل العناد، لانكشاف الغطاء فيه للكل، وانقطاع الدعاوي والخصومات، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾[٣] وإن كان الأمر له في كل زمان، وكذا قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[٤]؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى في معرض الامتنان: (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) ولم يذكر إسماعيل، مع أنه كان هو الابن الأكبر؟

قلنا: لأن إسحاق وهب له من حرة، وإسماعيل من أمة، وإسحاق وهب له من عجوز عقيم، فكانت المنة فيه أظهر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

فإن قيل: كيف قال في وصف القرآن: (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) وكثير

(١) محمد: ١١.
(٢) البقرة: ٢٤٧.
(٣) الانفطار: ١٩.
(٤) غافر: ١٦.

ممن يؤمن بالآخرة من اليهود والنصارى وغيرهم لا يؤمن به؟

قلنا: معناه: والذين يؤمنون بالآخرة إيمانًا نافعًا مقبولاً هم الذين يؤمنون به، إما تصديقًا به قبل إنزاله لما بشر به موسى وعيسى عليهما السلام واتباعًا له بعد إنزاله والأمر كذلك، فإن من لم يصدق موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام في بشارتهما بمحمد ﷺ وبالقرآن أو كان بعد بعثه ولم يؤمن به، فإيمانه بالآخرة غير معتد به ولا معتبر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فإن قيل: كيف أفرد قوله تعالى: (أو قال أوحى إلى) بالذكر بعد قوله: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا) وذلك أيضًا افتراء؟

قلنا: لأن الأول عام والثاني خاص، والمقصود الإنكار فيهما، ولا يلزم من وجود العام وجود الخاص، وفي هذا الجواب مغالطة؛ لأنه مسلم أنه لا يلزم من وجود العام وجود الخاص، ولكنه يلزم من الذم على العام وإنكاره الذم على الخاص، وإنكاره لا محالة، وما نحن فيه من هذا القبيل فالجواب المحقق أن يقال: إن هذا الخاص لما كان مخصوصًا بمزيد قبح من بين أنواع الافتراء خصه بالذكر تنبيهًا على مزيد العقاب فيه والإثم.

وفي قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فإن قيل: قوله تعالى: (بديع السموات والأرض) الآية، ما فائدة قوله: (خالق كل شيء) بعد قوله: (وخلق كل شيء)؟

قلنا: ذكره أولاً استدلالًا به على نفي الولد، ثم ذكره ثانيًا توطئة وتمهيدًا لقوله تعالى: (فاعبدوه) فإن كونه خالق كل شيء يقتضي تخصيصه بالعبادة، فكانت الإعادة لفائدة جديدة.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فإن قيل: في قوله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) كيف خص الأبصار بإدراكه لها، ولم يقل: وهو يدرك كل شيء، مع أنه أبلغ في التمدح؟

قلنا: لوجهين: أحدهما: مراعاة المقابلة اللفظية فإنه من البلاغة. الثاني: أن هذه الصفة خاصة بينه وبين الأبصار أنه يدركها، بمعنى الإحاطة بها وهي لا تدركه، فأما غيره مما يدرك الأبصار فهي تدركه أيضًا؟ فلهذا خصها بالذكر.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا) ولم يقل وهو الذي أنزل إليك مع أن الله تعالى قال: (وأنزلنا إليك الكتاب)؟

قلنا: لما كان إنزاله إلى النبي ﷺ ليبلغه إلى الخلق ويهديهم به كل في الحقيقة منزلاً إليهم لكن بواسطة النبي ﷺ فصلح إضافة الإنزال إليه وإليهم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:١١٨].

فإن قيل: في قوله تعالى: (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) كيف علق الكون من المؤمنين بأكل الذبيحة المسمى عليها، والكون من المؤمنين حاصل، وإن لم تؤكل الذبيحة أصلاً؟

قلنا: المراد اعتقاد الحل، لا نفس الأكل، فإن بعض من كان يعتقد حل الميتة كان يعتقد حرمة الذبيحة.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فإن قيل: كيف أبهم فاعل التزيين هنا فقال: (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) وقال في آية أخرى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾[1] وقال في آية أخرى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

(١) النمل: ٤.

﴿أَعْمَالَهُمْ﴾[١] فمن هو مزين الأعمال للكفار في الحقيقة؟

قلنا: التزيين من الشيطان بالإغواء والإضلال والوسوسة وإيراد الشبه، ومن الله تعالى بخلق جميع ذلك، فصحت الإضافتان.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) والرسل إنما كانت من الإنس خاصة؟

قلنا: المراد برسل الجن هم الذين يستمعون القرآن من النبي ﷺ ثم (ولوا إلى قومهم منذرين) كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾[٢] الآية. الثاني: أنه كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[٣] والمراد منه أحدهما لأنه إنما يخرج من الملح. والثالث: أنه بعث إليهم رسل منهم، قاله الضحاك ومقاتل.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

فإن قيل: كيف ذكر شهادتهم على أنفسهم في قوله تعالى: (يا معشر الجن والإنس) الآية، والمعنى فيهما واحد؟

قلنا: المعنى المشهود به متعدد وإن كان في الشهادة واحدًا، إلا أنهم في الأولى شهدوا على أنفسهم بتبليغ الرسل وإنذارهم، وفي الثانية شهدوا على أنفسهم بالكفر وهما متغايران.

فإن قيل: كيف أقروا في هذه الآية بالكفر وشهدوا على أنفسهم به وجحدوه في قولهم: (والله ربنا ما كنا مشركين)؟

---

(١) الأنفال: ٤٨.
(٢) الأحقاف: ٢٩.
(٣) الرحمن: ٢٢.

قلنا: مواقف القيامة ومواطنها مختلفة، ففي بعضها يقرون وفي بعضها يجحدون أو يكون المراد هنا شهادة أعضائهم عليهم حين يختم على أفواههم كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (سفهًا بغير علم) والسفه لا يكون إلا عن جهل؟

قلنا: معنى قوله: (بغير علم) بغير حجة، وقيل: بغير علم بمقدار قبحه ومقدار العقوبة فيه، وعلى الوجهين لا يكون مستفادًا من الأول.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وما كانوا مهتدين) بعد قوله: (قد ضلوا)؟

قلنا: فائدته الإعلام بأنهم بعدما ضلوا لم يهتدوا مرة أخرى، فإن من الناس من يضل ثم يهتدي بعد ضلاله.

وفي قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (إذا أثمر) بعد قوله: (كلوا من ثمره) ومعلوم أنه إنما يؤكل من ثمره إذا أثمر؟

قلنا: فائدة النفي يوهم توقف الإباحة على الإدراك والنضج بدلالته على الإباحة من أول إخراج الثمر.

وفي قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فإن قيل: كيف قال: (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما) الآية، وفي القرآن تحريم أكل الربا ومال اليتيم ومال الغير بالباطل وغير ذلك؟

---

(١) يس: ٦٥.

قلنا: محرمًا مما كانوا يحرمونه في الجاهلية، وقيل: مما كانوا مما يستحلونه فيها.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة) والموضع موضع العقوبة، فكان يحسن أن يقال فيه: ذو عقوبة شديدة أو عظيمة ونحو ذلك؟

قلنا: إنما قال ذلك نفيًا للاغترار بسعة رحمته في الاجتراء على معصيته، وذلك أبلغ في التهديد، معناه: لا تغتروا بسعة رحمته، فإنه مع ذلك لا يرد عذابه عنكم. وقيل: معناه: فقل ربكم ذو رحمة واسعة للمطيعين، ولا يرد عذابه عن العاصين.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فإن قيل: كيف قال: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) ثم فسره بعشرة أحكام خمسة منها واجبة، والتلاوة وصف للفظ لا للمعنى كيلا يقال أضدادها محرمة؟

قلنا: قوله: (أتل ما حرم ربكم عليكم) لا ينفي تلاوة غيره فقد تلا ما حرم وتلا غيره أيضًا. الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: أتل ما حرم ربكم عليكم وأوجب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فإن قيل: كيف خص مال اليتيم بالنهي عن قربانه بغير الأحسن ومال البالغ أيضًا كذلك؟

قلنا: إنما خصه بالنهي؛ لأن طمع الطامعين فيه أكثر لضعف مالكه وعجزه وقلة الحافظين له والناصرين، بخلاف مال البالغ. الثاني: أن التخصيص لمجموع الحكمين وهما النهي عن قربانه بغير الأحسن.

أو جواز قربانه بالأحسن بغير إذن مالكه، ومجموع الحكمين مخصوص بمال اليتيم،

وهذا هو الجواب عن كونه مغيبًا ببلوغ الأشد لأن المجموع ينتفي ببلوغ الأشد لانتفاء الحكم الثاني، وقيل: إن الغاية لمحذوف تقديره: حتى يبلغ فسلموه إليه.

فإن قيل: كيف خص العدل بالقول فقال: (وإذا قلتم فاعدلوا) ولم يقل: وإذا فعلتم فاعدلوا، والحاجة إلى العدل في الفعل أمس؛ لأن الضرر الناشئ من الجور الفعلي أقوى من الضرر الناشئ من الجور القولي؟

قلنا: إنما خصه بالقول ليعلم وجوب العدل في الفعل بالطريق الأولى كما قال تعالى: ﴿**فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ**﴾[1] ولم يقل: ولا تشتمهما ولا تضربهما لما قلنا.

وفي قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ [الأنعام: ١٦٤].

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وبين قوله: ﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ**﴾[2] وقوله: ﴿**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾[3]، وقد جاء في الحديث المشهور: «**من عمل سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**».

قلنا: المراد بالآية الأولى وزر لا يكون مضافًا إليها بمباشرة أو بسبب لتحقيق إضافته إلى غيرها على الكمال، أما إذا لم يكن كذلك فهو وزرها من وجه فتزره. وقيل: معناه: لا تزره طوعًا كما زعم المشركون بقولهم للنبي ﷺ: ارجع إلى ديننا ونحن كفلاء بما يلحقك من تبعة في دينك. وقول الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿**اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ**﴾[4] إلى قوله تعالى: ﴿**عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾[5] ومعنى باقي النصوص أنها تحمله كرهًا فلا تنافي بينهما.

***

(١) الإسراء: ٢٣.
(٢) العنكبوت: ١٣.
(٣) النحل: ٢٥.
(٤) العنكبوت: ١٢.
(٥) العنكبوت: ١٣.

سورة الأعـــراف

وفي قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]. فإن قيل: النهي في قوله تعالى: (فلا يكن في صدرك حرج منه) متوجه إلى الحرج فما وجهه؟

قلنا: هو من باب قولهم: لا أرينك هنا، معناه: لا تقم هنا، فإنك إن أقمت رأيتك، فمعنى الآية: فكن على يقين منه ولا تشك فيه؛ لأن المراد بالحرج الشك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (أهلكناها فجاءها بأسنا) والإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس وهو العذاب؟

قلنا: معناه أردنا إهلاكها كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾[(٢)]؟ وفي قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

فإن قيل: ميزان القيامة واحد فكيف قال تعالى: (فمن ثقلت موازينه ومن خفت موازينه)؟

قلنا: إنما جمعه لأنه أراد بالميزان الموزونات من الأعمال، وقيل: إنما جمعه لأنه ميزان يقوم مقام موازين ويفيد فائدتها، لأنه يوزن به ذرات الأعمال وما كان منها في عظم الجبال.

فإن قيل: كيف توزن الأعمال وهي أعراض لا ثقل ولا جسم، والوزن من خواص الأجسام؟ قلنا: الموزون صحائف الأعمال. الثاني: أنه قد ورد أن الله تعالى يحيلها في جواهر وأجسام، فتتصور أعمال المطيعين في صورة حسنة، وأعمال العاصين في صورة

(١) المائدة: ٦.

(٢) المائدة: ٩٨.

قبيحة، ثم يزنها، والله على كل شيء قدير.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾ [الأعراف: ١١].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وكلمة «ثم» للترتيب والتراخي، وخطاب الملائكة عليهم السلام بالسجود سابق على خلقنا وتصويرنا؟

قلنا: المراد ولقد خلقنا أباكم ثم صورناه بطريق حذف المضاف. وقيل: المراد: ولقد خلقنا أباكم ثم صورناكم في ظهره، والقول الأول أظهر. وفي قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى لإبليس: (فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) أي: في السماء، وليس له ولا لغيره أن يتكبر في الأرض أيضًا؟

قلنا: لما كانت السماء مقر الملائكة المطيعين الذين لا توجد منهم معصية أصلاً كان وجود المعصية بينهم أقبح، فلذلك خص مقرهم بالذكر، فإن قيل: كيف أجيب إبليس إلى الإنظار، وإنما طلب الإنظار ليفسد أحوال عباد الله تعالى ويغويهم؟

قلنا: لما في ذلك من ابتلاء العباد، ولما في مخالفته من عظم الثواب، ونظير ذلك ما خلقه الله تعالى في الدنيا من أصناف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركبه في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده. وفي قوله تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما) ولم يكن غرضه من الوسوسة كشف عورتهما، بل إخراجهما من الجنة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾[1]؟

(١) البقرة: ٣٦.

قلنا: اللام في «ليبدي» لام العاقبة والصيرورة؛ لا لام كي، كما في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(١)، وقول الشاعر:

لِدوا لِلمَوتِ وَابنوا لِلخَرابِ ... فَكُلُّكُمُ يَصيرُ إِلى التَرابِ

فإن قيل: أي آيات الله تعالى في اللباس والكسوة حتى قال تعالى في آية اللباس والكسوة: (ذلك من آيات الله)؟

قلنا: معناه أن اللباس والكسوة للإنسان خاصة علامة من العلامات الدالة على أن الله تعالى فضله على سائر الحيوانات، وقيل: معناه: ذلك من نعم الله.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى في حق إبليس: (ينزع عنهما لباسهما) ونازع لباسهما هو الله تعالى؟

قلنا: لما كان ذلك بسبب وسوسته وإغوائه أضيف النزع إليه، كما يقال: أشبعني الطعام وأرواني الشراب، والمشبع والمروى في الحقيقة إنما هو الله تعالى وهما سبب.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

فإن قيل: كيف قال: (كما بدأكم تعودون) وهو بدأنا أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ثم لحمًا كما ذكر، ونحن لا نعود عند الموت ولا عند البعث الموت على ذلك الترتيب؟

قلنا: معناه كما بدأكم أولاً من تراب، كذلك تعودون ترابًا. وقيل معناه: كما أوجدكم أولاً بعد العدم كذلك يعيدكم بعد العدم، فالتشبيه في نفس الإحياء والخلق، لا في الكيفية والترتيب. وقيل: معناه: كما بدأكم سعداء وأشقياء، كذلك تعودون، ويؤيده تمام الآية.

---

(١) القصص: ٨.

وقيل: معناه: كما بدأكم لا تملكون شيئًا كذلك تعودون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾[1] الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى مخبرًا عن الزينة والطيبات: (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا) مع أن الواقع المشاهد أنها لغير الذين آمنوا أكثر وأدوم؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الحياة الدنيا؛ لأن المشركين شاركوهم فيها، خالصة للمؤمنين في الآخرة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فإن قيل: كيف قال: (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) والميراث عبارة عما ينتقل من ميت إلى حي.

قلنا: هو على تشبيه أهل الجنة وأهل النار بالوارث والموروث عنه، وذلك أن الله تعالى خلق في الجنة منازل الكفار على تقدير الإيمان، فمن لم يؤمن جعل منزله لأهل الجنة. الثاني: أن نفس دخول الجنة بفضل الله ورحمته من غير عوض، فأشبه الميراث، وإن كانت الدرجات فيها بحسب الأعمال.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ألا له الخلق والأمر) أما الخلق بمعنى الإيجاد والإحداث فظاهر أنه مختص به سبحانه وتعالى، وأما الأمر فلغيره أيضًا، بدليل قوله تعالى: (يأمرون بالمعروف) وقوله: (وأمر بالعرف) وقوله: (وأمر أهلك بالصلاة)؟

قلنا: المراد بالأمر هنا قوله تعالى: (كن) عند خلق الأشياء، وهذا الأمر الذي به الخلق مخصوص به كالخلق، الثاني أن المراد بالخلق والأمر ما سبق ذكرهما في هذه الآية، وهو خلق السموات والأرض، وأمر تسخير الشمس والقمر والنجوم كما ذكر، وذلك

(١) الأنعام: ٩٤.

مخصوص به ﷻ.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١].

فإن قيل: لم قال نوح عليه الصلاة والسلام: (ليس بي ضلالة) بالتاء، ولم يقل ليس بي ضلال كما وصفه قومه به، وذلك أشد مناسبة ليكون نافيًا عين ما أثبتوه؟

قلنا: الضلالة أقل من الضلال، فكان نفيها أبلغ في نفي الضلال عنه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل: ألك ثمر؟ فقلت: ما لي ثمرة، كان ذلك أبلغ في النفي من قولك: ما لي ثمر.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

فإن قيل: كيف وصف الملأ بالذين كفروا في قصة هود دون قصة نوح عليهما السلام؟

قلنا: لأنه كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم عند هذا القول، فلم يكن كل الملأ من قومه قائلين له: (إنا لنراك في سفاهة) بخلاف قوم نوح فإنه لم يكن منهم من آمن به عند قولهم: (أنا لنراك في ضلال مبين) فكان كل الملأ قائلين ذلك، هكذا أجاب بعض العلماء، وهذا الجواب منقوض بقوله تعالى في سورة هود في قصة نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] وكذا في سورة المؤمنين، وجواب هذا النقض أنه يجوز أن القول كان مرتين، والمرة الثانية بعد إيمان بعضهم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

فإن قيل: كيف قال صالح عليه السلام لقومه بعد ما أخذتهم الرجفة وماتوا: (يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) ولا يحسن من الحي مخاطبة

(١) هود: ٢٧.

الميت لعدم الفائدة؟

قلنا: هذا يستعمل في العرف، فإن من نصح إنسانًا فلم يقبل منه حتى قتل أو صلب، ومر به ناصحه فإنه يقول له: كم نصحتك يا أخي فلم تقبل حتى أصابك هذا. وفائدة هذا القول حث السامعين له على قبول النصيحة ممن ينصحهم، لئلا يصيبهم ما أصاب المنصوح الذي لم يقبل النصيحة حتى هلك.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٦].

فإن قيل: لم قال شعيب عليه السلام لقومه: (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) وهم ما زالوا كافرين مفسدين لا مصلحين؟

قلنا: بعد أن أصلحها الله تعالى بالأمر بالعدل وإرسال الرسل. وقيل: معناه بعد أن أصلح الله تعالى أهلها بحذف المضاف. وقيل: معناه بعد الإصلاح فيها، أي: بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، فإضافته كإضافة قوله تعالى: ﴿**بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ**﴾ [الأعراف: ٨٨].

فإن قيل: كيف خاطبوا شعيب عليه السلام بالعود في الكفر بقولهم: (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) وهو أجابهم بقوله: (إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) وهو لم يكن في ملتهم قط؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز عليهم شيء من الكبائر خصوصًا الكفر؟

قلنا: العرب تستعمل «عاد» بمعنى صار ابتداء، ومنه قوله تعالى: ﴿**حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**﴾[(٢)]. الثاني: أنهم قالوا ذلك على طريق تغليب الجماعة على الواحد؛ لأنهم عطفوا على ضميره الذين آمنوا منهم بعد كفرهم، فجعلوهم عائدين جميعًا إجراء

(١) سبأ: ٣٣.
(٢) يس: ٣٩.

للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فمراده عود قومه المعطوفين عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦].

فإن قيل: لم قال فرعون: (فأت بها) بعد قوله: (إن كنت جئت بآية)؟

قلنا: معناه: إن كنت جئت بآية من عند الله فأتني بها، أي: أحضرها عندي.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[1] وفي سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[2] فنسب هذا القول إلى فرعون؟

قلنا: قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثَمَّ، وقولهم.

فإن قيل: السحرة إنما سجدوا الله تعالى طوعًا لما تحققوا معجزة موسى عليه السلام، فكيف قال تعالى: (وألقى السحرة ساجدين)؟

قلنا: لما زالت كل شبهة لهم بما عاينوا من آيات الله تعالى على يد نبيه اضطرهم ذلك إلى مبادرة السجود، فصاروا من غاية المبادرة كأنهم ألقوا إلى السجود تصديقًا لله ولرسوله.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى هنا حكاية عن السحرة الذين آمنوا وعن فرعون: (قالوا آمنا برب العالمين) إلى قوله: (وتوفنا مسلمين) ثم حكى عنهم هذا المعنى في سورة طه وسورة الشعراء بزيادة ونقصان في الألفاظ المنسوبة إليهم، وهذه الواقعة ما وقعت إلا مرة واحدة، فكيف اختلفت عبارتهم فيها؟

قلنا: الجواب عنه أنهم إنما تكلموا بذلك بلغتهم لا بلغة العربية، وحكى الله عنهم باللغة العربية مرارًا لحكمة اقتضت التكرار والإعادة سنبينها في سورة الشعراء إن شاء الله تعالى، فمرة حكاه مطابقًا للفظهم في الترجمة رعاية للفظ، وبعد ذلك حكاه بالمعنى جريًا على عادة العرب في التفنين في الكلام والمخالفة بين أساليبه، لئلا يمل إذا تمحض تكراره.

(١) الأعراف: ١٠٩.
(٢) الشعراء: ٣٤.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

فإن قيل: كيف قالوا: (مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها) سموها آية ثم قالوا: لتسحرنا بها؟

قلنا: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية بل حكاية لتسمية موسى عليه السلام على طريق الاستهزاء والسخرية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧].

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أي: أهلكنا، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1]؟

قلنا: معناه: ودمرنا، أي: أبطلنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المكر والمكيدة في حق موسى عليه السلام (وما كانوا يعرشون) أي: يبنون من الصرح الذي أمر فرعون هامان ببنائه ليصعد بواسطته إلى السماء؛ لأن التدمير يكون بمعنى الإهلاك، ويكون بمعنى الإبطال. وقيل: هو على ظاهره؛ لأن الله تعالى أورث ذلك بني إسرائيل مدة ثم دمره جميعًا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١].

فإن قيل: قوله تعالى: (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) قوله تعالى: (وفي ذلكم) إن كان إشارة إلى الإنجاء فليس فيه بلاء بل هو محض نعمة، وإن كان إشارة إلى القتل والأسر فإضافته إلى آل فرعون بقوله تعالى: (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أشد مناسبة لسياق الآية، وهو الامتنان، ولهذا قال يقتلون ويستحيون فأضاف إليهم الفعلين.

(١) الشعراء: ٥٧، ٥٩.

قلنا: البلاء مشترك بين النعمة والمحنة؛ لأنه من الابتلاء، وهو الاختبار، يقال: بلاه وابتلاه، أي: اختبره، والله تعالى يختبر شكر عباده بالنعمة ويختبر صبرهم بالمحنة، يؤيده قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٢] فمعنى الآية: وفي ذلك الإنجاء نعمة عظيمة من ربكم عليكم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

فإن قيل: (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر) المواعدة كانت أمره بالصوم في هذا العدد، فكيف ذكر الليالي مع أنها ليست محلاً للصوم، بل يقع في القلب أن ذكر الأيام أولى؛ لأنها محل الصوم الذي وقعت به المواعدة؟

قلنا: العرب في أغلب تواريخها إنما تذكر الليالي وإن كان مرادها الأيام؛ لأن الليل هو الأصل في الزمان، والنهار عارض لأن الظلمة سابقة في الوجود على النور. وقيل: إنه كان في شريعة موسى عليه السلام جواز صوم الليل؟

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) وقد علم مجموع الميقات من قوله تعالى: (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر)؟

قلنا: فيه فوائد: إحداها: التأكيد. الثانية: أن يعلم أن العشر ليال لا ساعات. الثالثة: أن لا يتوهم أن العشر التي وقع بها الإتمام كانت داخلة في الثلاثين يعني كانت عشرين وأتمت بعشر كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فإن قيل: لم قال موسى عليه الصلاة والسلام: (وأنا أول المؤمنين) وقد كان قبله كثير من المؤمنين، وهم الأنبياء ومن آمن بهم؟

قلنا: معناه: وأنا أول المؤمنين بأنك لا ترى بالحاسة الفانية من الجسد الفاني في دار الفناء. وقيل: معناه: وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل في زماني. وقيل: أراد بالأول

(١) الأعراف:١٦٨.
(٢) الأنبياء:٣٥.

الأقوى والأكمل في الإيمان، يعني لم يكن طلبي للرؤية لشك عندي في وجودك أو لضعف في إيماني، بل لطلب مزيد الكرامة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

فإن قيل: كيف قال: (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) وهم مأمورون بالعمل بكل ما في التوراة؟

قلنا: معناه: بحسنها وكلها حسن. الثاني: أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر، ففعل الخير أحسن من ترك الشر. الثالث: أن فيها حسنًا وأحسن كالاقتصاص والعفو، والانتصار والصبر، والواجب والمندوب والمباح، فأمروا بالأخذ بالعزائم والفضائل وما هو أكثر ثوابًا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدًا له خوار) واتخاذهم العجل إنما كان في زمن موسى عليه السلام بالنقل، وفي سياق الآية ما يدل على ذلك.

قلنا: معناه: من ذهابه إلى الجبل. وقيل: من بعد الأخذ عليهم ألا يعبدوا غير الله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

فإن قيل: كيف عبر عن الندم بالسقوط في اليد في قوله تعالى: (ولما سقط في أيديهم) وأي مناسبة بينهما؟

قلنا: لأن من عادة من اشتد ندمه وحسرته على فائت أن يعض يده غمًّا، فتصير يده مسقوطًا فيها، لأن فاه قد رفع فيها وسقط مسند إلى قوله في أيديهم، وهو من كنايات العرب كقولهم للنائم: ضرب على أذنه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (غضبان أسفًا) وهما متقاربان في المعنى قلنا: لأن الأسف الحزين، وقيل: الشديد الغضب ففيه فائدة جديدة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة) ولم يقل وفيها، وإنما يقال نسختها لشيء كتب مرة ثم نقل، فأما أول مكتوب فلا يسمى نسخة، والألواح لم تكتب من مكتوب آخر؟

قلنا: لما ألقى الألواح، قيل: إنه انكسر منها لوحان، فنسخ ما فيهما في لوح ذهب وكان فيهما الهدى والرحمة، وفي باقي الألواح تفصيل كل شيء. وقيل: إنما قال: (وفي نسختها) لأن الله تعالى لقن موسى عليه السلام التوراة ثم أمره بكتابتها فنقلها من صدره إلى الألواح فسماها نسخة.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (واتبعوا النور الذي أنزل معه) يعني: القرآن، والقرآن إنما أنزل مع جبريل عليه السلام على النبي ﷺ لا مع النبي ﷺ؟

قلنا: معه، أي: مقارنًا لزمانه. وقيل: معه، أي: عليه. وقيل: معه، أي: إليه، ويجوز أن يتعلق معه بـ«اتبعوا» لا بـ«أنزل»، معناه: واتبعوا القرآن.

وفي قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم) وهم إنما بدلوا القول الذي قيل لهم؛ لأنهم قيل لهم: (قولوا حطة) فقالوا حنطة؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وانتقالهم من صورة البشرية إلى صورة القردة ليس في قدرتهم؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

فإن قيل: الحلم من صفات الله تعالى، فكيف قال: (إن ربك لسريع العقاب) وسرعة العقاب تنافي صفة الحلم؛ لأن الحليم هو الذي لا يعجل بالعقوبة على العصاة؟

قلنا: معناه شديد العقاب. وقيل: معناه سريع العقاب إذا جاء وقت عقابه لا يرده عنه أحد.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

فإن قيل: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة فكيف قال تعالى: (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة)؟

قلنا: إنما خصها بالذكر إظهار لمزيتها لكونها عماد الدين بالحديث، وناهية عن الفحشاء والمنكر بالآية.

قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾

[الأعراف:١٧٦].

ذلك تمثيل لحال بلعام فكيف قال بعده: «ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا» والمثل لم يضرب إلا لواحد؟

قلنا: المثل في الصورة وإن ضرب لبلعام، ولكن أريد به كفار مكة كلهم؛ لأنهم صنعوا مع النبي ﷺ بسبب ميلهم إلى الدنيا وشهواتها من الكيد والمكر ما يشبه فعل بلعام مع موسى عليه السلام. الثاني: أن (ساء مثلاً القوم) راجع إلى قوله تعالى: (مثل القوم) لا إلى أول الآية.

فإن قيل: كيف قال: (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وهو ﷺ كان بشيرًا ونذيرًا

للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[1]؟

قلنا: المراد بقوله: (لقوم يؤمنون) لقوم كتب عليهم في الأزل أنهم يؤمنون، وإنما خصهم بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون بالإنذار والبشارة دون غيرهم، فكأنه نذير بشير لهم خاصة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ ويجوز أن يكون متعلق النذير محذوفًا تقديره: إن أنا إلا نذير للكافرين ويشير لقوم يؤمنون؛ فاستغنى بذكر أحدهما عن الآخر كما استغنى بالجملة عن التفصيل في تلك الآية؛ لأن المعنى: وما أرسلناك إلا كافة بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى حكاية عن آدم عليه السلام وحواء رضي الله عنها: (جعلا له شركاء فيما آتاهما) وقال ﷻ: (فتعالى الله عما يشركون) والأنبياء معصومون عن مطلق الكبائر، فضلاً عن الشرك الذي هو أكبر الكبائر؟

قلنا: المرد بقوله: (جعلا له) أي: جعل أولادهما بطريق حذف المضاف وكذا قوله تعالى: (فيما آتاهما) أي: فيما آتى أولادهما، ويؤيد هذا قوله تعالى: (فتعالى الله عما يشركون) حيث ذكر ضمير الجمع ولم يقل يشركان، ومعنى اشتراك أولادهما فيما آتاهم الله تعالى تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس ونحو ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد العزيز.

وقيل: الضمير في (جعلا) للولد الصالح وهو السليم الخلق، وإنما قال: (جعلا) لأن حواء كانت تلد في بطن ذكرًا وأنثى. وقيل: المراد بذلك تسميتها إياه عبد الحارث، والحارث كان اسم إبليس في الملائكة، وسبب تلك التسمية يعرف من تفسير الآية، وإنما قال شركاء إقامة للواحد مقام الجمع، ولم يذهب آدم وحواء إلى أن الحارث ربه، بل قصد أنه كان سبب نجاته، وقال جمهور المفسرين: قوله تعالى: (فتعالى الله عما يشركون) في مشركي العرب خاصة، وهو منقطع عن قصة آدم وحواء عليهما السلام.

---

(١) سبأ: ٢٨.

سـورة الأنفـال

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

فإن قيل: قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) إلى آخر الآيتين، يدل على أن من لم يتصف بجميع تلك الصفات لا يكون مؤمنًا؛ لأن كلمة «إنما» للحصر.

قلنا: فيه إضمار تقديره: إنما المؤمنون إيمانًا كاملاً، وإنما كاملو الإيمان كما يقال: الرجل من يصبر على الشدائد، يعني الرجل الكامل، فإن قيل: قوله تعالى: (أولئك هم المؤمنون حقًا) ينفى إرادة ما ذكرتم.

قلنا: معناه أولئك هم المؤمنون إيمانًا كاملاً حقًّا، وقيل: إن حقًّا متعلق بما بعده لا بما قبله، والمؤمنون تمام الكلام.

فإن قيل: كيف يقال: إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، وقد قال تعالى: (وإذ تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا)؟

قلنا: المراد هنا آثار الإيمان من الطمأنينة واليقين والخشية ونحو ذلك؛ لأن تظاهر الأدلة على المداول مما يزيده رسوخًا في العقائد وثبوتًا، فأما حقيقة الإيمان فهو التصديق والإقرار بوحدانية الله تعالى، وكما أن الإلهية والوحدانية لا تقبل الزيادة والنقصان، فكذا الإقرار بها.

يؤيد ما قلنا قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1] لم يقل: ليزيد فيَّ إيمانًا.

(١) البقرة: ٢٦٠.

وفي قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥].

فإن قيل: قوله تعالى: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) تشبيه فأين المشبه والمشبه به؟

قلنا: معناه امض على ما رأيته صوابًا من تنفيل الغزاة في قسمة الغنائم وإن كرهوا، كما مضيت في خروجك من بيتك للحرب بالحق وهم كارهون. وقيل: معناه: فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فهو خير لكم وإن كرهتم، كما كان إخراجك من بيتك بالحق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ليحق الحق ويبطل الباطل) وكلاهما متعذر؛ لأنه تحصيل الحاصل؟

قلنا: المراد بالحق الإيمان، والباطل الشرك، فاندفع السؤال.

فإن قيل: ما فائدة التكرار في قوله تعالى: (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق)؟

قلنا: إنما ذكر أولاً لبيان أن إرادتهم كانت متعلقة باختيار الطائفة التي كانت فيها الغنيمة، وإرادة الله تعالى باختيار الطائفة التي في قهرها نصرة الدين، فذكره أو لا للتمييز بين الإرادتين، ثم ذكره ثانيًا لبيان لحكمة في قطع دابر الكافرين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) ومعلوم أن المؤمنين يوم بدر قتلوا الكفار ورماهم النبي عليه الصلاة والسلام بكف من حصى الوادي في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» فلم يبق مشرك إلا وقع في عينيه شيء من ذلك، فشغلوا بعيونهم وانهزموا، فتبعهم المؤمنون يقتلون؟

قلنا: لما كان السبب الأقوى في قتلهم إنما هو مدد الملائكة وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين وتثبيت قلوب المؤمنين وأقدامهم، وذلك كله فعل الله تعالى، نفي الفعل عنهم ونسبه إليه، يعني: إن كان ذلك في الصورة منكم فهو في الحقيقة مني، فسبيلكم الشكر، دون العجب والفخر، وكذلك الرمية أثبتها لرسول الله ﷺ؛ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا يوجد مثله عن رمي البشر فعل الله تعالى، ونظير هذا قولك لمن يصدر عنه قول حسن أو فعل مكروه بتسليط من هو أعلى رتبة منه: هذا ليس قولك ولا فعلك. وقيل: معنى قوله تعالى: (وما رميت إذ رميت) وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت الحصى في وجوههم، ولكن الله رمى الرعب في قلوبهم. ولأهل الحقيقة في هذه الآية وفي نظائرها من الكتاب والسنة مباحث لا يحتملها هذا المختصر، وهي مستقصاة في كتب التصوف.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾

[الأنفال: ٢٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه) التي في الأمر ثم أفرد في النهي؟

فكذلك يذكر ضمير المفرد ويراد به ضمير الاثنين كقولهم: إنعام فلان ومعروفه يغشيني، والإنعام والمعروف لا ينفع مع فلان، وعليه جاء قوله تعالى: (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أي: يرضوهما، فكذا هنا معناه: ولا تولوا عنهما. الثاني: أنه إن أفرد باعتبار عود الضمير إلى الله وحده؛ لأنه الأصل، مع أن طاعة الله وطاعة رسوله متلازمان، قال الله تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ**﴾ فكان الإعراض عن الرسول إعراضًا عن الله تعالى، فاكتفى بذكره.

الثالث: أن معناه: ولا تولوا عن هذا الأمر وعن أمثاله، فالضمير للأمر لا للرسول عليه الصلاة والسلام. الرابع: أنه إنما لم يقل ولا تولوا عنهما لئلا يلزم منه الإخلال بالأدب من النبي عليه الصلاة والسلام عند نهيه للكفار في قرانه بين اسمه واسم الله تعالى

في ذكرهما بلفظ واحد من غير تقديم اسم الله، كما روي: «أن خطيبًا خطب فقال: من أطاع الله ورسوله فقد رشد، ومن عصاهما فقد غوى، فقال له النبي ﷺ: بئس خطيب القوم أنت، هلا قلت: ومن عصى الله ورسوله فقد غوى»؟

وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٣].

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم) الآية؟

قلنا: معناه ولو علم الله فيهم تصديقًا وإيمانًا في المستقبل لأنطق لهم الموتى يشهدون بصدق نبوتك كما طلبوا. وقيل: معنى (لأسمعهم): لرزقهم الفهم والبصيرة، وأسمعهم وحالهم هذه الحال، وهو «أنه لم يعلم منهم الخير» لتولوا وهم معرضون.

فإن قيل: التولي والإعراض واحد، فما فائدة قوله: (لتولوا وهم معرضون)؟

قلنا: معناه لتولوا عن الإيمان وهم معرضون عن البرهان.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأنفال: ٣٢].

فإن قيل: فما فائدة ذكر السماء في قوله تعالى: (فأمطر علينا حجارة من السماء) والمطر إنما يكون من السماء؟

قلنا: المطر المطلق إنما يكون من السماء، ولكن المطر المضاف هنا وهو مطر الحجارة قد يكون من رءوس الجبال ومن حيطان المساكن والقصور وسقوفها، فكان ذكر السماء مفيدًا؛ لأن الحجارة إذا نزلت من السماء كانت أشد نكاية وأكثر ضررًا. الثاني: أنه لما كانت الحجارة المسومة للعذاب وهو السجيل معهودة النزول من السماء، ذكر السماء إشارة إلى إرادة المعهود من الحجارة، كأنه قال: فأمطر علينا حجارة من سجيل، فوضع قوله من السماء موضع قوله من سجيل، كما تقول: صب عليه مسرودة من حديد، يعني درعًا.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ويوم بدر عذبهم الله تعالى بالقتل والأسر، وهو فيهم؟

قلنا: معناه وأنت مقيم فيهم بمكة، وكان كذلك؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام ما دام بمكة لم يعذبوا، فلما أخرجوه من مكة وخرجوا لحربه عذبوا. وقيل: معناه: وما كان الله ليعذبهم عذاب الاستئصال وأنت فيهم، وقيل: معناه: وما كان الله ليعذبهم العذاب الذي طلبوه وهو: إمطار الحجارة.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ**﴾ [الأنفال: ٣٤].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى أولاً: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم قال: (وما لهم ألا يعذبهم الله) الآية، وهو يوهم التناقض؟

قلنا: معناه: وما لهم أن لا يعذبهم الله بعد خروجك بينهم، وخروج بعض المستغفرين. وقيل: المراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال: الثاني: عذاب غير الاستئصال، وقيل: المراد بالأول عذاب الدنيا، وبالثاني الآخرة.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ [الأنفال: ٣٥].

فإن قيل: (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق، وهما ليسا بصلاة؟

قلنا: معناه أنهم أقاموا المكاء والتصدية مقام الصلاة، كما يقول القائل: زرت فلانًا، فجعل الجفاء صلتي، أي: أقام الجفاء مقام صلتي، ومنه قول الفرزدق:

أَخَافُ زِيَادًا أَن يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُوداً أَو مُحَدرَجَةً سُمرًا

أراد بالأداهم: القيود، وبالمحدرجة: السياط، ووضعهما موضع العطاء.

قوله تعالى: ﴿**قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ**﴾ [الأنفال: ٣٨].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف، وإن يعودوا..) لم ينتهوا عن الكفر، فكيف قال: (وإن يعودوا) والعود إلى الشيء إنما يكون بعد تركه والإقلاع عنه؟

قلنا: معناه أن ينتهوا عن عداوة رسول الله ﷺ ومحاربته يغفر لهم ما قد سلف من ذلك، وإن يعودوا إلى قتاله وعداوته (فقد مضت سنة الأولين) منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر، أو فقد مضت سنة الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية. وقيل: معناه: إن ينتهوا عن كفر بالإيمان يغفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الإسلام يجب ما قبله» وإن يعودوا إلى الكفر والارتداد بعد ما أسلموا فقد مضت سنة الأولين من الأمم من أخذهم بعذاب الاستئصال.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً**﴾ [الأنفال: ٤٤].

فإن قيل: الفائدة في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهرة، وهي زوال الرعب من قلوب المؤمنين وتثبيت أقدامهم وزيادة اجترائهم على القتال، فما فائدة تقليل المؤمنين في أعين الكفار، حتى قال الله تعالى: (ويقللكم في أعينهم)؟

قلنا: فائدته أن لا يستعد الكفار كل الاستعداد، فيجترئوا على المؤمنين معتمدين على قلتهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيدهشوا ويتحيروا، وأن يكون ذلك سببًا يتنبه به المشركون على نصرة الحق إذ رأوا المؤمنين مع قلتهم في أعينهم منصورين عليهم، وفي التقليل من الطرفين معارضة تعرف بالتأمل.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٤٦].

فإن قيل: قوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) يدل على حرمة المنازعة والجدال أيضًا، لأنه منازعة، فكيف تجوز المناظرة وهي منازعة وجدال؟

قلنا: المراد بالمنازعة هنا: المنازعة في أمر الحرب والاختلاف فيه، المنازعة في إظهار

الحق بالحجة والبرهان، والدليل عليه أن ذلك مأمور به، قال الله تعالى: (وجادلهم بالتي هي أحسن) لكن تجوز بشروط يندر وجودها في زمننا هذا: أحدها: أن يكون كل المقصود منها ظهور الحق على لسان، أي: الخصمين، كما كانت مناظرة السلف، وعلامة ذلك: أن لا يفرح بظهور الحق على لسانه أكثر مما يفرح بظهوره على لسان خصمه.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فإن قيل: كيف قال إبليس: (إني أخاف الله) وهو لا يخاف الله؛ لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده؟

فقلنا: قال قتادة: ما صدق عدو الله في قوله: (إني أرى ما لا ترون) يعني جبريل والملائكة عليهم السلام معه منزلين من السماء لنصرة المسلمين يوم بدر، وكذب في قوله: (إني أخاف الله) والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له بهم. وقيل: لما رأى نزول الملائكة على صورة لم يرها قط خاف قيام الساعة التي هي غاية إنظاره فيحل به العذاب. وقيل: معنى (أخاف الله): أعلم صدق وعده لنبيه بالنصر، وقد جاء الخوف بمعنى العلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ ويحتمل عندي أن يكون خاف أن يحل به من الملائكة قادون الإهلاك من الأذى إذا لم يخف الإهلاك، ثم أقول: كيف تؤخذ عليه كذبة واحدة وهو من أفسق الفسقة وأكفر الكفرة فلا عجب في كذبة، وإنما العجب في صدقة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

فإن قيل: أي مناسبة بين الشرط والجزاء في قوله تعالى: (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم)؟

قلنا: لما أقدم المؤمنون وهم ثلاثمائة وبضعة عشر على قتال المشركين وهم زهاء ألف متوكلين على الله، وقال المنافقون: غر هؤلاء دينهم حتى أقدموا على ثلاثة أمثالهم عددًا أو أكبر، قال الله تعالى ردًّا على المنافقين وتثبيتًا للمؤمنين: (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز) أي: غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي وينصره عليه (حكيم) في جميع أفعاله.

وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١].

فإن قيل كيف قال: (وأن الله ليس بظلام للعبيد) ولم يقل ليس بظالم، وهو أبلغ في نفي الظلم عن ذاته المقدسة؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة آل عمران.

وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فإن قيل: قوله ﷻ: (ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وذلك إشارة إلى إهلاك كفار مكة وآل فرعون ولم تكن لهم حال مرضية غيرها؟

قلنا: كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة تغير حال المسخوطة إلى أسخط منها وأسوأ، وأولئك كانوا قبل بعث الرسول إليهم عباد الأصنام، وعادوه وسعوا في قتله، غيروا حالهم إلى أسوأ منها، فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الإمهال، وعاجلهم بالعذاب.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (فهم لا يؤمنون) بعد قوله: (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا)؟

قلنا: مراده أن يبين أن شر الكفار الذين كفروا واستمروا على الكفر إلى وقت الموت.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَّكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

فإن قيل: ما فائدة تكرار المعنى الواحد في مقاومة الجماعة لأكثر منها قبل التخفيف وبعده في قوله تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) إلى قوله: (والله مع الصابرين)؟

قلنا: فائدته الدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة: لا تتفاوت، بل كما ينصر

الله تعالى العشرين على المائتين ينصر المائة على الألف، وكما ينصر المائة على المائتين ينصر الألف على الألفين.

فإن قيل: كيف أخبر الله تعالى عن هذه الغلبة ونحن نشاهد الأمر بخلافها، فإن المائة من الكفار قد تغلب المائة من المسلمين، بل المائتين في بعض الأحوال؟

قلنا: إنما أخبر الله ﷻ عن هذه الغلبة بشرط الصبر الذي هو الثبات في موقف الحرب، أو الذي هو الموافقة بين المسلمين ظاهر أو باطنًا، فمتى وجد الشرط تحققت الغلبة للمسلمين مع قلتهم لا محالة، ولقائل أن يقول: إن هذه الغلبة مخصوصة بطائفة كان النبي ﷺ أحدهم، وسياق الآية يدل عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآَخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (والله يريد الآخرة) مع أنه يريد الدنيا لأنه لو لا إرادته إياها لما وجدت، فما فائدة هذا التخصيص؟

قلنا: المراد بالإرادة هنا الاختيار والمحبة، لا إرادة الوجود والكون، فالمعنى: أتحبون عرض الحياة الدنيا وتختارونه، والله يختار ما هو سبب الجنة، وهو إعزاز الإسلام بالإثخان[1].

***

(١) أي: بالإثخان في القتل.